﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾

الصِّدْقُ مَنْجَاة

عاهدتُ اللهَ ألَّا أُحدِّثُ إلَّا صِدقًا.
الصِّدقُ في الإخلاصِ، الصَّبر، التَّوبة، معرفةُ النَّفسِ.
الصِّدقُ في معرفةِ نِعمِ اللهِ، الصِّدقُ في الرِّضا عن اللهِ.
الصِّدقُ في الشَّوقِ إلى لِقاءِ اللهِ والأُنسِ بذكرِه سُبحانه.
أمثالٌ شعبيَّةٌ تحرِّضُ على الكذبِ، كِذبةُ إبريل.
كلماتٌ مِن نُورٍ تُعينكَ على الصِّدقِ.
هيَّا بِنا نُؤمِنُ ساعةً أو قُل نَصدُقُ ساعةً
وحَتَّى تُؤتي الصَّحوةُ ثِمارَها بإذنِ اللهِ .. وموضوعاتٌ أُخرى

كتبه

سَعِيد عبد العَظِيم
عفا الله عنه

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي

الصدق منجاة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع ٥٧٧٠ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى
977-331-088-4

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

تقديم:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (سورة النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً ﴾ (سورة الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

عظم الله مقدار الصدق وعلق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به فما أنجى الله مَنْ أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك مَنْ أهلك إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة التوبة: ١١٩).

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء، وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر مطرد منعكس فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب، وأخبر سبحانه وتعالى أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم وجعل علم المنافقين الذي تميزوا به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم فجميع ما نعاه عليهم أصله الكذب في القول والفعل، فالصدق بريد الإيمان ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه بل هو لبه وروحه، والكذب بريد الكفر والنفاق ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه ولبه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما صاحبه ويستقر موضعه، والله سبحانه أنجى الثلاثة ـ الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك ـ بصدقهم وأهلك غيرهم من المتخلفين بكذبهم.

فما أنعم الله على عبد من نعمة بعد الإسلام أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده، والله المستعان كما قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ.

ولذلك فالصدق اسم للمعاني كلها، وهو داخل فيها، وفي المصباح المنير صدق: (صدقًا) خلاف كذب فهو صادق و(صدوق) مبالغة و(صدقته) في القول يتعدى ولا يتعدى و(صدقته) بالتثقيل نسبته إلى الصدق و(صدقته) قلت له صدقت... و(الصديق) المصادق وهو بين (الصداقة) واشتقاقها من الصدق في الود والنصح والجمع (أصدقاء) وامرأة (صديق) و(صديقة) أيضًا ورجل (صِدِّيق) بالكسر والتثقيل ملازم للصدق.

أما الكذب فهو كما قال: كذب يكذب (كذبًا) ويجوز التخفيف بكسر الكاف وسكون الذال (فالكذب) هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، سواء فيه العمد

والخطأ ولا واسطة بين الصدق والكذب على مذهب أهل السنة. والإثم يتبع العمد و(أكذب) نفسه و(كذبها) بمعنى اعترف بأنه كذب في قوله السابق و(أكذبت) زيداً بالألف وجدته (كاذبًا) و(كذبته تكذيبًا) نسبته إلى الكذب أو قلت له كذبت.

قال الكسائي: وتقول العرب: (أكذبته) بالألف إذا أخبرت بأن الذي حدث كذب ورجل (كاذب) و(كذاب).

وفي التنزيل قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة النمل:٢٧)، فيه أدب حسن لما يلزم العظماء من صيانة ألفاظهم عن مواجهة أصحابهم بمؤلم خطابهم عند احتمال خطئهم وصوابهم، ومثله قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ (سورة المنافقون:١)، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة المنافقون:١)، أي: في ضميرهم المخالف الظاهر لأنه قد يكون كاذبًا بالميل لا في نفس الأمر فكان ألطف من قوله: «أصدقت أم كذبت»، ومن هنا يقال عند احتمال الكذب ليس الأمر كذلك ونحوه فإنه يحتمل أنه تعمد الكذب أو غلط أو لُبِّس فأخرج الباطل في صورة الحق. ولهذا يقول الفقهاء لا نسلم ولكنهم يشيرون إلى المطالبة بالدليل تارة وإلى الخطأ في النقل تارة وإلى التوقف تارة فإذا أغلظوا في الرد قالوا ليس كذلك وليس بصحيح. اهـ.

وقد أورد صاحب «المستطرب» كلمات في الصدق فقال: قال الله تعالى مبشراً الصادقين: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (سورة المائدة:١١٩). وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ (سورة الأحزاب:٣٥). فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضي الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك وما أحسن ما قيل في ذلك.

عليك بالصدق ولو أنه ■● أحرقك الصدق بنار الوعيد

وأبلغ رضا المولى فأغبى الورى ■● من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه فقال لهم يا بني عليكم بتقوى الله وعليكم بالقرآن فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً. ثم سُئل عنه أَقرَّ به. فقال: والله ما كذبت قط منذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ، بم يُعرف المؤمن، قال: «بوقاره، ولينِ كلامه، وصدقِ حديثه». وقيل لكل شيء حلية، وحلية النطق الصدق وقال محمود الورّاق:

الصدق منجاة لأربابه ■■ وقربة تدنى من الرب

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله وانتفع به سامعه. وقال المهلب بن أبي صفرة: السيف الصارم في يد الشجاع ليس بأعَزَّ لَهُ من الصدق. وكان يقال عن الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعي(أي بين الناس بالنميمة) ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لاطَّلعَ على خزائن الغيب ولكان أمينًا في السموات والأرض وقيل: من لزم الصدق وعَوّد لسانه به وُفق. ويقال: الصدق بالحُرِ أحرىَ.

وقال عتبة بن أبي سفيان: إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب، فأنظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب... وقال عامر العدواني: في وصيته إني وجدت صدق الحديث طرفًا من الغيب فاصدقوا. يعني: من لزم الصدق وعوده لسانه وفق، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه وخطب بلال لأخيه امرأةً قرشية فقال لأهلها: نحن مَن قد عرفتم كنا عبدينِ فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرينِ فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي فإن تنكحوها لهِ فالحمد لله تعالى، وإن تردونا فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقتهَ ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ فزوجوا

أخاه فـزوجوه، فـلما انصـرفوا قـال له أخوه يغـفر الله لك مـا كنت تذكر سـوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وتترك ما عدا ذلك فقال: مه (أي كف) يا أخي صدقت فأنكحك الصدق.

وخطب الحجاج فأطال فقام رجل فقال الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك. فأمر بحبسه، فأتاه قومـه وزعموا أنه مجنون، وسألوه أن يخلي سبيله فقال: إن أقر بالجنون خليته، فقيل له فقال: معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه. ا.هـ.

لما كان الصدق بهذه المنزلة والدرجة، وهو منجاة في ذات الوقت كان على العاقل اللبيب أن ينصح نفـسه به، وعلى كل من آثر سعادة نفـسه أن يعمل بمقـتضاه. وهذا أوان الشروع في المقصود، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

□★●★□

القرآن يأمر بالصدق

وردت كلمة الصدق ومشتقاتها في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى وكلها تحث على التحلي والتجمل به فتارة يصف سبحانه نفسه به كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (سورة آل عمران: ٩٥)، ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٢)، ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ (سورة الفتح: ٢٧)، وقال عن وعده: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٢)، ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ (سورة الزمر: ٧٤)، ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ ﴾ (سورة الأنبياء: ٩)، ووصف كلماته سبحانه بالصدق فقال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ (سورة الزمر: ٣٢)، وقال: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٣٣)، وقال: ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (سورة الحجر: ٦٤)، وقال: ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (سورة الأحقاف: ١٦)، ووصف أنبياءه بالصدق فقال عن نبيه محمد ﷺ: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (سورة الصافات: ٣٧)، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ (سورة الإسراء: ٨٠)، وقال عن نبيه إبراهيم: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٤١)، ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (سورة الشعراء: ٨٤)، وقال عن اسماعيل: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٥٤)، وقال: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (سورة يس: ٥٢)، وقال عن يوسف: ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٥١)، وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٥٠)، ووصف المؤمنين بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ (سورة المعارج: ٢٦)، وقال بعد ذكر خصال البر: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧)، وقال: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٣)، وقال: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (سورة التحريم: ١٢)، وقال: ﴿ لِيَسْأَلَ

الصَّادقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب:٨)، وقال: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (سورة المائدة:١١٩) ، وقال: ﴿ وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (سورة الحشر:٨). وقال: ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ (سورة الأحزاب:٣٥)، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ (سورة الحديد:١٩)، وقال: ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (سورة النساء:٦٩). والقرآن مصدق للكتب السابقة المنزلة: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (سورة البقرة:٨٩)، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (سورة الأنعام:٩٢)، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ (سورة الأحقاف:١٢)، ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ (سورة البقرة:٤١)، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ (سورة النساء:٤٧).

والنبي ﷺ مصدق للأنبياء من قبل: ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ (سورة آل عمران:٨١)، ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (سورة البقرة:١٠١) .

وكل نبي يصدق من قبله ويبشر بمن بعده: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ (سورة آل عمران:٥٠). ﴿ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ (سورة المائدة:٤٦).

والسنة تحض عليه

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكتب حتى يكذب عند الله كذابًا**»(١)، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طُمأنينة والكذب ريبة**»(٢)، وقوله: «يريبك» معناه: اترك ما تشك في حله واعدل إلى ما لا تشك فيه.

---

(١) (متفق عليه) البخاري (١٠/ ٦٠٩٤)، ومسلم (٦٥١٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٤٢)، «صحيح الجامع» (٣٣٧٨).

وعن أبي سفيان رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هرقل: قال هرقل: فماذا يأمركم؟ يعني النبي ﷺ، قال أبو سفيان: قلت يقول: «**اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة**»[(١)]، وفي الحديث: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق؛ بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضعَ امرأةٍ وهو يريد أن يبني بها ولم يبنِ بها، ولا أحد بنى بيوتًا لم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنمًا أو خَلِفاتٍ وهو ينتظر أولادها فغزا فدنا من القرية صلاةَ العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا فحُبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم فجاءت: يعني النار لتأكلها فلم تطعمها فقال: إن فيكم غُلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: إن فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعها فجاءت النار فأكلتها، فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا، ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا**»[(٣)]، «**الخلفات**»: هي الناقة الحامل.. نهى هؤلاء الثلاثة أن يتبعوه في الغزو لأن قلوبهم معلقة بعلائق الدنيا فلن يصدقوا في طلب النصر على الأعداء ولن يضحوا بأنفسهم والله أعلم.

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بُورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركةُ بيعهما**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٧، ص٤٢).

(٢) مسلم (٥/ ٤٨٤٧).

(٣) متفق عليه: البخاري (٦/ ٣١٢٤)، مسلم (٤٤٧٤).

(٤) متفق عليه: البخاري (٤/ ٢٠٨٢) «فتح الباري»، ومسلم(٣٧٨٤).

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين

قال القرطبي: «حق على كل من فهم عن الله أن يلازم الصدق في الأقوال والإخلاص في الأعمال والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحَقَ بالأبرار، ووصل إلى رضا الغفار، وقد أرشد تعالى إلى ذلك كله بقوله عند ذكر أحوال الثلاثة التائبين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة التوبة:١١٩)، والقول في الكذب المحذر عنه على الضد من ذلك». ا.هـ.

وتقوى الله تكون بترك معاصيه، وهى العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله، وتقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف، وكان البعض يقول: اتقِ الله الذي لابُدَّ لك من لقاه ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة، وقالوا: اتقِ الله فإنه من اتقاه وقاه ومن أقرضه جزاه ومن شكره زاده.

﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ الذين يلازمون الصدق في الأيمان والعهود وقال بعضهم: مع الصادقين المقيمين على منهاج الحق. وقال بعضهم مع من ترتضي حاله سرًا وإعلانًا ظاهرًا وباطنًا. وقال بعضهم: ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي الذين لم يخالفوا الميثاق الأول فإنها أصدق كلمة.

قال أبو سليمان: الصحبة على الصدق والوفاء تنفي كل علة من المصطحبين إذا قاما وثبتا على منهاج الصدق، لأن الله تعالى يقول: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة التوبة:١١٩). والصدق استعمله الصوفية بمعنى استواء السر والعلانية والظاهر والباطن بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله، وجعلوا الإخلاص لازمًا أعم، فقالوا: كل صادق مخلص، وليس كل مخلص صادقًا وسئل الجنيد: أهما واحد أم بينهما فرق؟ فقال: بينهما فرق: الصدق أصل والإخلاص فرع، والصدق أصل كل شيء والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في الأعمال والأعمال لا تكون مقبولة إلا بهما.

عاهدت الله ألا أحدث إلا صدقًا

عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب رضي الله عنه من بنيه حين عَمِي قال: سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يُحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يُعاتب أحد تخلف عنه. إنما خرج رسول الله ﷺ، والمسلمون يريدون عِير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، فكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها. حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عددًا كثيرًا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهبةَ غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتابٌ حافظ ـ يريد بذلك الديوان ـ قال كعب: فَقَلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له مالم يَنزلْ فيه وحي من الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة، حين طابت الثمارُ والظلالُ، فأنا إليها أصعرُ فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معه، فأرجع ولم أقض شيئًا وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجدُ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو فهممت أن ارتحل فأدركهم، فياليتني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول

لله ﷺ يُحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب بن مالك؟**»، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه براده والنظر في عطفيه (أي جانبيه كناية عن العجب) فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا فسكت رسول الله ﷺ، فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مُبْيضًا يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون، قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي (حزني) فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بما أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنجُ منه بشيء أبدًا فأجمعت صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعًا وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله حتى جئت فلما سلَّمت تَبَسَّم تَبسُمَ المغضب ثم قال: «**تعالَ**»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك**» (أي اشتريت بعيرك)؟»، قال: قلت يا رسول الله: إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك عليَّ، وإن حدثتك حديثَ صدقٍ تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عقبى الله عزَّ وجلَّ، والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**»

وسار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المُخلَّفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقى هذا معي من أحد، قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فقلت لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا: أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس أو قال: تغيروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ فما هى بالأرض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشبَ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردَ السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إلى فسلمت عليه فوالله مارد عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ﷺ؟ فسكت، فعدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يَدلُّ على كعب بن مالك؟ فَطَفِقَ الناس يشيرون له إليَّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتبًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته فإذا فيه: أما بعد: فإنه قد بلغنا أن

صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فَالْحَقْ بنا نُوايسك، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها فلا تقربنها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «**لا، ولكن لا يقربنك**». فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى الآن.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها؟ وأنا رجل شاب، فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى عنا قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحُبت إذ سمعت صوت صارخ أَوْفَى على سلع (جبل بالمدينة) يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرج فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله عزَّ وجلَّ علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مُبشِّرون وركض إليَّ رجل فرسًا، وسعى ساعٍ من أَسلمَ قِبلَي وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم (أقصد) رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئونني بالتوبة ويقولون لي لتهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد.

فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس فقام إليَّ طلحه بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره فكان كعب لا ينساها لطلحه، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**» فقلت: أمِن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «**لا بل من عند الله عزَّ وجلَّ**».

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدثَ إلا صدقًا ما بقيت فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو الله تعالى فيما بقي، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (سورة التوبة: ١١٧). حتى بلغ: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. (سورة التوبة: ١١٧-١١٩).

قال كعب: والله ما أنعم اللهُ عليَّ من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَ ما قال لأحد فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة التوبة: ٩٥-٩٦).

قال كعب: كنا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس الذي ذكر مما خلفنا تَخلُفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»[1].

وقد ذكر الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فوائد كثيرة تتعلق بغزوة تبوك في كتابه (زاد المعاد) ومنها: توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق ولم يخذلهم حتى كذبوا (أي المنافقون) واعتذروا بغير الحق فصلحت عاجلتهم وفسدت عاقبتهم كل الفساد والصادقون تعبوا في العاجلة بعض التعب فأعقبهم صلاح العاقبة والفلاح كل الفلاح. وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة فمرارات المبادئ حلواتٌ في العواقب وحلواتُ المبادئ مراراتٌ في العواقب وقول النبي ﷺ لكعب أما هذا فقد صدق دليل ظاهر في التمسك بمفهوم اللقب عند قيام قرينة تقتضي تخصيص المذكور بالحكم ـ . . . إلى أن قال ـ: وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب.

وأما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر فدواء هذا المرض، لا يعمل في مرض النفاق ولا فائدة فيه وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة فلا يزال مستيقظًا حذرًا وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يُخلِي بينه وبين معاصيه وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة.

والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها. ا.هـ.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٧/ ٤٤١٨)، «فتح الباري»، ومسلم (٦٨٧٩).

أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون

هذا الثناء إنما يستحقه من اتصف بهذه الصفات المذكورة في قوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧).

وهذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، والبر المذكور فيها اسم جامع للخير، فليس هو ما عليه أهل الكتاب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين إيمانًا صحيحًا، يقوم على ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ.

وأنت ترى كيف وُضع في آية واحدة قواعد التصور الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني الصحيح وحدد فيها صفة الصادقين المتقين، قال القرطبي في تفسيره: وصفهم بالصدق والتقوى في أمورهم والوفاء بها، وإنهم كانوا جادين في الدين، وهذا غاية الثناء، والصدق خلاف الكذب، ويقال: صدقوهم القتال. والصدِّيق الملازم للصدق. وفي الحديث: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**»[1]. ا.هـ.

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم، وذكر الواحدي رحمه الله في آخر هذه الآية مسألة وهي أنه قال: هذه الواوات في الأوصاف في هذه الآية للجمع، فمن شرائط البر وتمام شرط البار أن تجتمع فيه هذه الأوصاف، ومن قام به واحد منها لم يستحق الوصف بالبر، فلا ينبغي أن يظن الإنسان أن الموفى بعهده من جملة من قام بالبر وكذا الصابر في البأساء بل لا يكون قائمًا بالبر إلا عند استجماع هذه الخصال، ولذلك قال بعضهم: هذه الصفة خاصة للأنبياء عليهم السلام لأن غيرهم لا تجتمع فيه هذه الأوصاف كلها، وقال آخرون: هذه عامة في جميع المؤمنين وما توفيقي إلا بالله. ا.هـ.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال سيد قطب في (الظلال): وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلاً لا يتجزأ ووحدة لا تنفصم، وتضع على هذا كله عنوانًا واحدًا هو «البر» أو هو «جماع الخير» أو هو «الإيمان»، كما ورد في بعض الأثر والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام ومن ثم تعقب الآية على من هذه صفاتهم بأنهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أولئك الذين صدقوا ربهم في إسلامهم، صدقوا في إيمانهم واعتقادهم، وصدقوا في ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعة في الحياة، وأولئك هم المتقون الذين يخشون ربهم ويتصلون به، ويؤدون واجبهم له في حساسية وفي إشفاق.

وننظر نحن من خلال هذه الآية إلى تلك الآفاق العالية التي يريد الله أن يرفع الناس إليها، بمنهجه الرفيع القويم.. ثم ننظر إلى الناس وهم ينأون عن هذا المنهج ويتجنبونه، ويحاربونه، ويرصدون له العداوة، ولكل من يدعوهم إليه.. ونقلب أيدينا في أسف ونقول ما قال الله سبحانه يا حسرة على العباد! ثم ننظر نظرة أخرى فتنجلي هذه الحسرة على أمل في الله وثيق، وعلى يقين في قوة هذا المنهج لا يتزعزع ونستشرف المستقبل فإذا على الأفق أمل. أمل وضيء منير أن لابد لهذه البشرية من أن تفيء - بعد العناء الطويل - إلى هذا المنهج الرفيع، وأن نتطلع إلى هذا الأفق الوضيء... والله المستعان ا.هـ.

إن البر الذي هدى إليه الصدق هو قمة الخير التي لا يرقى إليها إلا أولو العزم من الرجال فاحرص أن تكون واحدًا منهم.

دواعي الصدق

ذكر الماردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) الأمور الداعية إلى الصدق ومنها العقل، لأنه موجب لقبح الكذب، لاسيما إذا لم يجلب نفعًا، ولم يدفع ضررًا، والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنًا، ويمنع من إتيان ما كان مستقبحًا... ومنها: الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لأن الشرع لا يجوز أن يرد ما حظره العقل،

بل جاء الشرع زائداً علي ما اقتضاه العقل من حظر الكذب، لأن الشرع ورد بحظر الكذب وإن جر نفعًا، أو دفع ضررًا، والعقل إنما حظر ما لا يجلب نفعًا ولا يدفع ضررًا ومنها: المروءة، فإنها مانعة من الكذب، باعثة على الصدق، لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرهًا، فأولى من فعل ما كان مستقبحًا، ومنها حب الاشتهار بالصدق، حتى لا يُردَّ عليه قول، ولا يلحقه ندم.

وقد قال بعض البلغاء: ليكن مرجعك إلى الحق، ومنزعك إلى الصدق؛ فالحق أقوى معين، والصدق أفضل قرين، وقال بعض الشعراء:

عَودْ لسانكَ قولَ الصدقِ تحظَ به ■■■ إن اللسان لما عَودتَ معتادُ

مُوكل بتقاضي ما سننت له في ■■■ الخير والشر فانظر كيف ترتادُ

وهذه هى الدواعي التي ذكرها الماوردي وقد نقلتها باختصار، ولقد أخطأ الماوردي في تقديمه العقل على الدين، فهذا هو منهج المعتزلة في التحسين والتقبيح العقلي وتقديم العقل على النقل، أما أهل السنة فهم يقدمون النقل على العقل، ويقولون العقل متول ولى الرسول ثم عزل نفسه، أو هو بمثابة دابة توصلك لقصر السلطان ثم لا تدخل بها عليه، ثم العقول متفاوتة فمنها عقل الصغير والكبير والرجل والمرأة والعالم والجاهل... وقد يستحسن هذا ما يستقبحه الثاني، وإن كان لا يتصور وجود تناقض بين نقل صحيح وعقل صريح كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، فإن حدث التعارض فإما أن يكون النقل غير صحيح وإما أن يكون العقل غير صريح، وإذا ورد الشرع يحث العباد على الصدق ويذم الكذب بَطَلَ نهرُ معقل فهل مَن يعقلُ؟ فكن صادقًا في كل شيء تقوله ولا تكن كذابًا فتُدعى منافقًا واعلم أن الصدق هين ترى أنه يضرك وهو ينفعك.

قال المهلب: ما يكون السيف الصارم بيد الملك الشجاع بأعزَّ له من الصدق، وكان يقال: ينبغي للملك أن يكون صدوقًا ليثق الأعوان بوعده وأن يكون شكورًا فيستوجب الزيادة، وقال الأحنف بن قيس: كُمَّلُ الناس حقيقةً بالصدق وأحقهم به

الملوك لأن الذي يدعو إلي الكذب مهانَةُ النفس وَالملكُ لا يكون مهينًا، وقال البعض: أول سعادة الملك صدقه وأول هلاكه جوره.

الإخلاص والصدق والصبر

اعلم رحمك الله : أن هذه ثلاثة أسماء لمعان مختلفة، وهى داخلة في جميع الأعمال ولا تتم الأعمال إلا بها فإذا فارقتْ الأعمال فسدت ولم تتم، ولا يتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض، فمتى فُقد أحدُها تعطلت الأخر، فالإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه، والصبر عليه، والصبر لا يتم إلا بالصدق فيه والإخلاص فيه، والصدق لا يتم إلا بالصبر عليه والإخلاص فيه.

الصدق في الإخلاص

والإخلاص: هو فقد رؤية الإخلاص، ومن أحسن في إخلاصه الإخلاص، فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص، وهو تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى في الطاعات عن جميع الشوائب، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (سورة البينة:٥) .وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف:١١٠). وكان الفضيل يقول: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

فالمخلص: هو الذي ينسى الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ويريد الله عزَّ وجلَّ، بجميع أعماله وأفعاله، وحركاته ظاهرة وباطنة، وأن يكون مادحه وذامه في الحق سواء، لكن إذا أثنى عليه أحد، حمد الله على ستره عليه حين وفقه لخير رآه العباد عليه، ثم يخاف عند ذلك، من عمله الرديء وسريرته القبيحة، التي خفيت على الناس ولم تخفَ على الله، فيشفق من ذلك ويخاف أن تكون سريرته أقبح من علانيته، لأن السريرة إذا كانت أقبح من العلانية، فذلك الجور، وإذا استوت السريرة والعلانية فذلك العدل، وإذا فضلت السريرة على العلانية فذلك الفضل، والطاعات التي طلب الشرع فيها الظهور كالحج والعمرة والجماعة في الصلوات والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر والأذان. . . فهذه المطلوب فيها الظهور شرعًا مع مجاهدة النفس في إخلاصها لله تعالى، أما غير الشعائر كالصدقات وعمل البر والخير فإظهارها بقصد الإرشاد والحث عليها فهذا أيضًا مشروع لقول النبي ﷺ: **«مَن سَنَّ سُنَّةً حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومَن سَنَّ سُنَّةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»**[(١)].

وعلى العبد بعد ذلك أن يخفي عمله جهده حتى لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فذلك أبلغ في رضا الله عزَّ وجلَّ وأعظم في تضعيف الثواب وأقرب إلى السلامة وأوهن لكيد العدو، وأبعد من الآفات، فمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وعلى العبد أن لا يرجو إلا الله ولا يخاف إلا الله ولا يتزين إلا لله، ولا يأخذه في الله لومة لائم، وأن يعلم أن العباد لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضراً ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً، فكيف يملكون ذلك له، وكيف يرائيهم؟!، ثم الجنة والنار بيد الله وليست بيد أحد من المخلوقين فكيف يشتري رضا الناس بسخط الله؟! عن أبي أمامة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله: **«لا شيء له»** فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: **«لا شيء له»**، ثم قال: **«إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه»**[(٢)].

احذر من أن تكون من هؤلاء الذين عناهم الله بقوله: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ (سورة الزمر: ٤٧ ـ ٤٨). ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ**

---

(١) رواه مسلم (٣/ ٢٣١٣).

(٢) رواه النسائي (٣٠٨٩)، قال المنذري: إسناده جيد (حسن)، وصححه الألباني في: «صحيح الجامع» (١٨٥٦).

صُنْعًا ﴾ (سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤). ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ (سورة الفرقان: ٢٣).

واحرص على استحضار النية في كل قول وفعل يوافق السنة، فالأعمال الصحيحة لا تقبل إلا بنية خالصة صادقة ولذلك قال البعض: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل، وقالو: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية.

الصدق في الصبر

ولابد أيضًا من الصدق في الصبر، حتى تكتمل المعاني الثلاثة، والصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة، فأما الظاهرة فهي ثلاث:

فأولها ـ الصبر على أداء فرائض الله تعالى على كل حال في الشدة والرخاء والعافية والبلاء طوعًا وكرهًا.

ثم الصبر الثاني ـ هو الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه، ومنع النفس من كل ما مالت إليه بهواها مما ليس لله تعالى فيه رضا طوعًا وكرهًا، وهذان الصبران فرض على العباد أن يعملوا بهما.

ثم الصبر الثالث ـ هو الصبر على النوافل وأعمال البر مما يقرب العبد إلى الله تعالى. ففي الحديث القدسي: **«وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»**[1].

والصبر الباطن: هو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ودعاك إليه بالنصيحة، فيُقبل منه، لأن الحق رسولٌ من الله جل ذكره إلى العباد، ولا يجوز لهم رده، فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله تعالى أمره، والصبر هو احتمال مكروه النفس، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة، أو هو تجرع المرارة من

(١) رواه البخاري (١١/ ٦٥٠٢).

غير تعب، كما أنه خلق فاضل تمتنع بـه النفس من فعل ما لايحسن ولا يجمل، فإذا وقع بالنفس ما تكرهه تجرعت ذلك وأنفت الجـزع وتركت البث والشكوى للمخلوقين وكتمت ما نزل بها؛ ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٤).

وكيف لا يصـدق المسلم في صبره، والإمـامة في الدين منوطة به ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (سورة السـجدة: ٢٤). وهو سبب الخـير والفلاح ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ (سورة النحل: ١٢٦). ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (سورة آل عمران: ٢٠٠). والله يحب الصابرين، ومع الصبر واليقين لا يضر كيد العدو ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٠). وقد بشر سبحانه الصابرين بثلاث خصال فقال: ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ (سورة البقرة ـ ١٥٥: ١٥٧). والصبر هو سـبب لدخول الجنة وذلك لقوله تعالى: ﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ (سورة المؤمنون: ١١١). كما أن الانتفـاع بآيات الله إنما يكون لأهل الصبـر وأهل الشكر ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ (سورة إبراهيم: ٥). قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «**نعم العدلان، ونعمت العلاوة**»، «العدلان»: الصلوات والرحمة، و«العلاوة»: الاهتداء، و«العدل»: الجزاء والعُوض.

فانظر رحمك الله كيف أن العبد لما آمن بالله تعالى، وصدَّق قوله في الذي وعده وتواعده، قـامت في قلبه الرغبة في ثـواب الله الذي وعده، ولزمت قلبه الخشـية من عقاب الله الذي تواعده، وصحت عند ذلك رغبته، وقامت عزيمته في طلب النجاة مما يخافـه، وهاجمت آمـاله في الظفر بالذي يرجـوه، فجد عند ذلك فـي طلب الثواب والهرب من العـقاب، فسكن الخـوف والرجاء قلبه، فـركب عند ذلك مطية الصـبر، وتجرع مرارته عند نزوله، ومضى في إنفاذ العزائم وحـذر من نقصها، فوقع عليه اسم الصبر وكان صادقًا في صبره.

الصدق في التوبة

فالصدق اسم لمعانٍ كثيرة، وأول الصدق: هو صدق العبد في الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ (سورة التحريم:٨). وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور:٣١). وقال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ (سورة التوبة:١١٧) .فأول التوبة هو الندم على ما كان من التفريط في أمر الله تعالى ونهيه والعزيمة على ترك العود في شيء مما يكره الله عزَّ وجلَّ، ودوام الاستغفار، ورد كل مظلمة للعباد من المال ونحوه، ولزوم الخوف من الله تعالى والإشفاق أن لا تقبل توبتك، ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى على بعض ما يكره فمقتك، فقد كان الحسن البصري رحمه الله يقول: «يؤمنني أن يكون قد رآني على بعض ما يكره فقال: اعمل ما شئت فلا غفرت». وقال أيضًا: «أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي»، وسأل أحد العلماء رجلاً فقال له: تبت؟ قال: نعم. قال: قبلت؟ قال: لا أدري.. قال: اذهب فادر. وقالوا: يفنى حزن كل شيء ثكلى: (التي فقدت ابنها)، وحزن التائب ما يفنى.

ولا يصح للعبد أن ييأس من رحمة ربه، وقد فتح سبحانه أبواب الرجاء حتى لمن قال إن الله ثالث ثلاثة، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ (سورة الأنفال:٣٨). وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر:٥٣). وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران:١٣٥).

وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»[1]، وثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول

(١) رواه مسلم (٦/ ٦٨٣١).

الله ﷺ : «لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلة بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[(١)]. وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم لو أنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[(٢)].

ومن صدق التوبة: ترك الإخوان والأصحاب الذين أعانوك على تضييع أمر الله تعالى والهرب منهم إلا أن يتوبوا، فقد قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٦٧). ومن صدق التوبة: خروج المأثم من القلب والحذر من خفايا التطلع إلى ذكر شيء مما رجعت وتبت إلى الله منه قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٠). والعبد إن خلا من المعصية والهم بها فلا يخلو من الخواطر والوساوس الشيطانية فعليه بالإكثار من الاستغفار، فقد كان رسول الله ﷺ يقول: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[(٣)]، وقال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٤)]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة، يقول: «رب اغفرلي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور»[(٥)]؛ ولذلك أكرمه سبحانه بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (سورة الفتح: ٢). فأحسن التأسي به ﷺ، فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس وسكنه

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٦٣٠٩)، ومسلم (٦/ ٦٨٢١).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٣)، وأحمد (٢٠٤٩٩)، وصححه الإلباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧).

(٣) رواه مسلم (٦/ ٦٧٣٠).

(٤) رواه البخاري (١١/ ٦٣٠٧).

(٥) رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الإلباني في «صحيح الجامع» (٣٤٨٦).

النور، لم يخفَ عليه ما يدخل قلبه من خفي الآفات وما يتبع ذلك من القسوة والفتور، فيتوب عند ذلك ويستشعر في توبته عظيم فضل الله عليه، أن وفقه وهداه إليها ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة التوبة: ١١٨). فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فسارعوا واحذروا التسويف، فتأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه، واصدقوا في توبتكم، وعموا بها جميع الذنوب، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، واعلموا أن توبة العبد تقبل ما لم يُغرغر (تردد الروح في الحلقوم) وما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها آمن الناس جميعًا فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، فالبدار البدار إلى التوبة قبل حلول النقمة عساها ترد ما قد يُرد، فإن البر لا يبلى والذنب لا ينسى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة المجادلة: ٦).

الصدق في معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (سورة النساء: ١٣٥). وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (سورة يوسف: ٥٣). وقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (سورة النازعات: ٤٠-٤١).

فمن صفة الصادق في القصد إلى الله تعالى؛ أن يدعو نفسه إلى طاعة الله تعالى وطلب مرضاته، فإن أجابته حمد الله تعالى وأحسن إليها، فهكذا يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنهم رأوه يُوَطِّء (يهيىء) شيئًا يفترشه، فقيل له: ما هذا؟ قال: «**نفسي إن لم أحسن إليها لم تحملني**»، وإن لم تجبه إلى ما يرضى الله ورآها بطيئة، استحثها على

الاستقامة وخالفها عندما تهوى، وعاداها في الله ولله، وشكاها إلى الله حتى يصلحها له ويكثر من دعائه: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها**»(١)، وكان أكثر دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**»(٢).

والتعرف على عيوب النفس هو بداية الطريق لعلاجها، وكان بعض العلماء يقول: إن من صلاح نفسي علمي بفسادها، وكان محمد بن واسع يقول: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليَّ، وقال: عددت مائة خصلة من خصال الخير لم أجد لنفسي فيها نصيبًا. وقال بعض العلماء: إن كنت صادقًا في ذمك لنفسك، فإنْ ذمك غيرُك بما فيك فلا تغضب، وقالوا: كفى بالمرء إثمًا: أن يعرف من نفسه عيبًا لا يصلحه، وليس منتقلاً من ذلك إلى توبة. فإذا نازعتك نفسك إلى شيء من الشهوات أو شغل قلبك في طلب شيء مما حرم عليك فاتهمها تهمة من يريد صلاحها واحملها على اللحوق بمن تقدمها من الصالحين، واعمل في فطام نفسك، فإن من فطم نفسه عن الدنيا كان رضاعه من الآخرة، ومن اتخذ الآخرة أمّاً أحَبَ برَها والورودَ عليها، وكان شداد بن أوس رضي الله عنه يقول: اعملوا أنكم لن تروا من الخير إلا أسبابهُ ولن تروا من الشر إلا أسبابَه، الخير بحذافيره في الجنة، والشر بحذافيره في النار والدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، ولكل دار بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيا.

فلابد من الصدق في محاسبة النفس؛ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٦/ ٦٧٧٥)، وأحمد (٢٤٥٧٥)، والنسائي، «صحيح الجامع» (١٢٨٦).

(٢) رواه أحمد (١١٦٦٤)، وابن حبان، وابن ماجه، الحاكم، «صحيح الجامع» (٧٩٨٨).

(٣) رواه أحمد، والترمذي(٢٣٨٣).

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا والله لا أعود إلى هذا أبدًا، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله».

وقال مالك بن دينار: «رحم اللهُ عبدًا قال لنفسه ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عزَّ وجلَّ فكان لها قائدًا»، قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا** ﴾ (سورة آل عمران: ٣٠). وقد قيل: إن النفس اللوامة هى نفس المؤمن دائمًا تلومه، لما فعلت كذا ولما قلت كذا، وكان كذا أولى من كذا، وقيل: هذا اللوم يحدث يوم القيامة، وهذه النفس هي التي أقسم بها سبحانه في قول: ﴿ **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ (سورة القيامة: ١-٢). أما النفس المطمئنة، فهى أفضل النفوس وهى التي اطمأنت بالوعد والوعيد وبالجنة والنار، فأنابت إلى ربها واشتاقت إلى لقائه، وهى التي عناها سبحانه بقوله: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ (سورة الفجر: ٢٧-٣٠). وهي نفس قرينها الملك يسددها ويوفقها، أما النفس الأمارة بالسوء فقرينها الشيطان ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ (سورة النساء: ١٢٠).

فراجع نفسك وحاسبها واجعل لها خطامًا وزمامًا فَقُدها بخطامها إلى طاعة الله وزمها بزمامها عن معصية الله، فإن الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على

عذابه، واحذر التخلف عن السابقين، وانظر في خاصة نفسك، وحث على ذلك أصدقاءَك وأصفياءك، فإن السابقين شمروا وشدوا المآزر، فاغتنموا شبابهم قبل هرمهم، وصحتهم قبل سقمهم، وفراغهم قبل شغلهم، وحياتهم قبل موتهم، ورعوا حق الله تعالى، وحذروا أن يهتكوا ستراً مما نهاهم عنه، فاجتنبوا الشبهات وتركوا الحرام تعبداً، وألفوا السهر والظمأ في طاعة ربهم، فرضى الله عنهم ورضوا عنه، سمعوا القوارع ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الحجر: ٩٢-٩٣). وأنصتوا لقول ربهم: ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (سورةالأعراف: ٦-٧). وكيف لا يصدقون وقد أخافهم قوله سبحانه: ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ (سورةالأحزاب: ٨). فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين فقم على ساق عزمك وقل: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (سورة طه: ٨٤).

الصدق في معرفة عدوك

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (سورة فاطر ٦). وقال سبحانه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ (سورة الأعراف: ٢٧). وقال جل وعلا: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ (سورة النمل: ٢٤). وقال رسول الله ﷺ: «في القلب لمتان لمة من الملك، إيعاد بالخير وتصديق بالحق؛ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير؛ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٨)»[1]. وقال الحسن: «إنما هما همان يجولان في القلب: هَمٌّ من الله تعالى،

(١) رواه الترمذي، وحسنه.

وهَمٌّ من العدو، فرحم الله عبداً وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده»، والشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس (انزوى) وإذا غفل وسوس، فاحذر مكائده ووساوسه فقد قعد للإنسان بكل طريق، طريق الاسلام والهجرة والجهاد، ويحاول دائمًا أن يأخذ من العباد نصيبه المفروض، الذي قطعه على نفسه حين قال: ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (سورة النساء: ١١٨)؛ ولذلك فهو يحرص على أن يستوقفهم في عقبة من العقبات السبع، الكفر أو البدعة أو الكبيرة، أو الصغيرة أو تقديم الأمور المفضولة على الأمور الفاضلة أو الإسراف في المباحات، فإن لم يفلح جر عليهم الأذى رجاءَ إعاقتهم، وهذه العقبة السابعة لم يفلت منها حتى الأنبياء، والشيطان لا ينام ولو نام لاستراحنا، ثم هو فقيه في الشر ومن فقيهه في الشر يرضى الانسان ببعض أفعال البر والخير حتى يظن أنه يحسن الصنع، ودائمًا ما يصور الأشياء للإنسان على غير حقيقتها، ويبرز الأشياء المستقبحة في صورة حسنة ويسمي الأشياء بغير اسمها ويداخل النفوس مما تهوى وتحب كما صنع مع أبينا آدم قال: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (سورة طه: ١٢٠). لما آنس منه ميلاً للمكث والإقامة بالجنة، وانظر كيف سمى الشجرة التي نُهى آدم عن الأكل منها بشجرة الخلد.

فاحذر الشيطان على نفسك فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بطبعه أيضًا عن كل خير، فاقطع مادته بالعزيمة على مخالفة هواك، وامنع نفسك من الإفراط والتعلق بالآمال فهما خير أعوانه عليك، وبهما يَقوى كيدُه، إذا اتبعتهما فأحضر عقلك وعلمك الذي علمك الله تعالى، فقم بهما على نفسك وراع قلبك وما يقع فيه، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه، وما كان من جنس الباطل والهوى فاجتنبه.

واحذر ما يجري في القلب من تدبير أمره فالخطرة تصير شهوة، ثم تصير الشهوة همة ثم تصير الهمة فعلاً، واعلم أن عدوك إبليس لا يغفل عنك في سكوت ولا كلام ولا صلاة ولا صيام ولا بذل ولا منع، ولا سفر ولا حضر، ولا تفرد ولا خلطة، ولا في رزانة ولا عجلة ولا في نظر ولا في غض بصر، ولا في كسل ولا في نشاط، ولا في ضحك ولا في بكاء، ولا حزن ولا فرح، ولا صحة ولا سقم، ولا علم ولا جهل، ولا حركة ولا سكون، ولا توبة ولا إصرار. ولن يألوا جهدًا ويدخر وسعًا في توهين عزمك، وفتور نيتك، وتأخير توبتك، ويسوف طاعتك وقتًا إلى وقت، ويأمرك بتعجيل ما لا يضرك تأخيره، يريد بذلك قطعك من الخير، ثم يذكرك الحوائج في وقت شغلك بالبر والطاعة ليقطعك عن خير أنت فيه، وربما حبّب إليك النقلة من بلد إلى بلد، يوهمك أن غير البلد الذي أنت فيه أفضل ليشغل قلبك ويعطل مقامك بما يعقبك الندم إذا أنت فعلته.

فاعتصم بالوحى الصادق في شأنه وشأن أوليائه، فلا حجه له في إغواء العباد ﴿ **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ (سورة النساء: ٧٦). وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ (سورة الإسراء: ٦٥). وما خاب من استخار الخالق واستشار المخلوق، فاحترس من عدوك أشد الاحتراس وتحصن منه بالملجأ إلى الله عزَّ وجلَّ فإنه أمنع الحصون وأقوى الأركان، فاجعل الله تعالى ملجأك ومعاذك، واحذر عدوك عند الغضب والشهوة وسد أبوابه التي ينفذ منها كالحسد والحرص والشبع والعجلة والبخل وخوف الفقر والتعصب للمذاهب وسوء الظن بالمسلمين، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠١).

لابد من الصدق في معرفة عدوك إبليس وتجنب وساوسه وحيل أوليائه وقد كان البعض يقول: احذر أن تكون صديقه في السر وعدوه في العلن ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (سورة آل عمران: ١٠١).

الصدق في الورع وطلب الحلال

الورع من الدين كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، والصدق في الورع يقتضي الخروج من كل شبهة والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور، فالسلامة لا يعدلها شيء، ولا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس وقد ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: **«الحلال بين والحرام بيِّن، وبينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام؛ كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[1].

وقال ابن سيرين ـ رحمه الله ـ: ما في ديني شيء أيسر من الورع كل ما اشتبه عليَّ تركته. وقال الفضيل ـ رحمه الله ـ: يقول الناس: الورع شديد.

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فخذ ما حل وطاب من الأشياء، وابذل المجهود في طلب الشيء الصافي من الحلال؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (سورة المؤمنون: ٥١).

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: «من ضبط بطنه؛ ضبط دينه ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة وإن معصية الله بعيدة من الجائع، قريبة من الشبعان». وقد ذكر النبي ﷺ: **«الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام؛ فأنى يستجاب لذلك»**[2].

والصدق في الحلال أن تأخذ منه ما لابد منه على قدر معرفتك بنفسك، وما يقيم ميلها ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنقطع ولا تصير معها إلى ما تهواه من

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٢٠٥١)، ومسلم (٤٠١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٠٨).

السرف ولكن خذ ما يقيمك بلا تقتير ولا سرف في الطعام واللباس والمسكن، واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف فقد روي أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أبا الحسن، صف لنا الدنيا، فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب أو عقاب.

وقد قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (سورة الحديد: ٧).

وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة يونس: ١٤).

فأيقن القوم: أنهم وأنفسهم لله تعالى، وكذلك ما خولهم وملكهم فإنما هو له غير أنهم في دار اختبار وبلوى.

وهكذا يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (سورة الإنسان: ١). قال: يا ليتها تمت؟ يعني: لم يخلق، حين سمع الله تعالى يقول: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ وذلك من معرفة عمر رضي الله عنه بواجب حق الله وقدر أمره ونهيه، وعجز العباد عن القيام به وقيام الحجة لله تعالى عليهم عند تقصيرهم وما تواعدهم به إذا ضيعوا، وأهل الصدق، هم الذين عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه وفهموا لماذا خلقهم وما أراد منهم فوافقوه سبحانه في محبته، ونزلوا في الأمور عند مشيئته، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الحافظين لوصيته، والأمناء على دينه ووحيه والنصحاء له في خلقه وبريّته، ولم يتخلفوا عن أمره.

فالأنبياء والصالحون من عباد الله الذين ابتلاهم الله في الدنيا بالسعة كانوا غير مقصرين ولا مفرطين ولا متوانين ولا مشغولي القلوب بما ملكوا ولا مستأثرين به دون عباد الله، بل قاموا لله بحقه وأعطوا كل ذي حق حقه، روى العلماء: أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل إلا مع الضيف، فربما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيف فيطويها، وربما كان يمشي الفرسخ (ثلاثة أميال) أو أقل أو أكثر تلقيا للضيف، وكان أيوب عليه السلام، لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى إلا رجع إلى منزله فكفر عنه خشية أن يكون قد حنث في يمينه وشفقةً عليه، وذكروا أن يوسف عليه السلام: كان على خزائن الأرض، فكان لا يشبع، فقيل له في ذلك فقال: «**أخاف أن أشبع فأنسى الجياع**»، ولا بأس بالشبع أحيانًا، كما صحّ بذلك الخبر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهكذا كان القوم ناعمين بذكر الله وعبادته، غير

ساكنين إلى ما ملكوا، لا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يحزنون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب.

وقد خُير رسول الله ﷺ بين أن يكون ملكًا رسولاً أو عبدًا رسولاً فاختار أن يكون عبدًا رسولاً، وكان من دعائه: «**اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين**»[(١)]، ورضي ﷺ أن يجوع مرة ويشبع مرة، وامتثل أمره سبحانه: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ (سورة طه: ١٣١). ولبس يومًا حلة لها علم، فطرحها، وقال: «**كادت تلهيني أعلامها**»، أو قال: «**ألهتني أعلامها، خذوها وأتوني بأنبجانية**»[(٢)].

وعلى هذا النهج القويم في الحذر والورع والسبق في طاعة الله سار الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومن تابعهم بإحسان، فحين حثهم النبي ﷺ على الصدقة جاء أبو بكر بماله كله فقال له النبي ﷺ: «**ما خلفت لعيالك؟**»، قال: الله ورسوله، ولي عند الله مزيد، ثم جاء عمر بنصف ماله، فقال له النبي ﷺ: «**ما خلفت لعيالك؟**»، قال: نصف مالي، ولله عندي مزيد[(٣)]. ثم عثمان رضي الله عنه يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاجه، ويحفر بئر رومة[(٤)]. وهكذا أخرجوا الدنيا من قلوبهم ووضعوها في أيديهم ولم يضنوا بشيء عن الله عزَّ وجلَّ، وأن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله تعالى وأنصف من نفسه، عجيب أمر هؤلاء الأفاضل رضي الله عنهم، جاءتهم الدنيا من حلها فلم يرفعوا بها رأسًا، كان طعام عمر الخبز والزيت، وفي ثوبه بضع عشرة رقعة، وقد فُتحت عليه كنوز كسرى وقيصر، وخرج عثمان وعلى عنقه حزمة من حطب فقيل له: في ذلك، فقال: «**أردت أن أنظر نفسي: هل تأبى؟**»، نسأله سبحانه أن يبلغنا ما بلغ بالقوم، وأن يرزقنا الصدق في طلب النجاة والقيام له سبحانه بحقه.

---

(١) رواه عبد بن حميد «المنتخب من المسند» (٢/١١٠).

(٢) رواه البخاري (١/ ٣٧٣) «فتح».

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه البخاري في «التاريخ».

الصدق في الزهد

كان الحسن ـ رحمه الله ـ يقول: لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُب فرحًا وأن أمرًا هذا الموت آخره لحقيق أن يُزهد في أوله وأن أمرًا هذا الموت أوله لحقيق أن يخاف آخره ولأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تدركك المخاوف.

وقد ورد ذم الدنيا في كتاب الله وعلى لسان رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ** ﴾ (سورة الحديد: ٢٠). وقال سبحانه: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ (سورة آل عمران: ١٤). فهذه الأمور التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ هى من هوى النفس ولذتها، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها، والذم لاينصب على الزمان والمكان فكلاهما آية من آيات الله تعالى وخلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا.

فالدنيا المذمومة هى النفس الأمارة بالسوء وما هويت، وهى أيضًا أفعال العباد الفاسدة والمخالفة لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ وقد فسر سفيان الثوري ووكيع وأحمد بن حنبل الزهد في الدنيا بقصر الآمال، لأن مَن قصر أمله كانت الغفلة منه بعيدة، وقال البعض: الزاهد في الدنيا هو الراغب في الآخرة، الذي قد جعلها نُصب عينه كأنه يرى عقابها وثوابها، وقيل: الزاهد في الدنيا حقًا: لا يذم الدنيا ولا يمدحها ولا يفرح بها إذا أقبلت ولا يحزن عليها إذا أدبرت. ولما سئل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أيكون الإنسان ذا مال وهو زاهد؟، فقال: نعم، إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصانه. وقد فسر يونس بن ميسرة الزهد بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب، فقال: ليس الزهد بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ولكن الزهد، أن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يد نفسك وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء.

وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له: ما هذا الصفار يا غلام؟ قال: أسقام وأمراض، قال: لتخبرني، قال: يا أمير المؤمنين عزفت نفسي عن الدنيا، فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وأهل النار في النار يتعاوون، فقال له عمر: أنىَّ لك هذا يا غلام؟ قال: اتق الله يفرغ عليلك العلم إفراغًا، وقد قسم البعض الزهد إلى ثلاث درجات، وأعلاها أن يزهد في الدنيا طوعًا ويزهد في زهده فلا يرى أنه ترك شيئا، قال الحسن: الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال: هو أزهد مني. وقيل لأبي حازم: ما مالك؟ قال لي مالان لا أخشى معهما الفقر، الثقة بالله، واليأس مما في أيدي الناس، وقيل له: أما تخاف الفقر؟ فقال: أنا أخاف الفقر ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

اعلم رحمك الله، أن من كانت الدنيا همه فرق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، وأن من جعل الهم هما واحدًا كفاه الله سائر همومه، وتذكر أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وفي المال داء كبير ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (سورة غافر:٣٩). وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حقارة الدنيا وهوانها فقال: **«ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»**[(١)]، وقال: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»**[(٢)]، وقال أيضًا: **«إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»**[(٣)] (رواه مسلم)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالما ومتعلما»**[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (٧٠٥٧).
(٢) رواه الترمذي، وصححه (٢/ ٥٢).
(٣) رواه مسلم (٦٨١٤).
(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤٣).

فأحسن التأسي، والزم منهاج من مضى، وقد علمت كيف تخوف عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة ﷺ من أن تكون حسناتهم عجلت لهم، وبكوا بكاء الخشية من بعض المباح، قال رجل للتابعين: لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيراً منكم، كانوا أزهد في الدنيا، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لأن حلفتم لي على رجل أنه أزهدكم لأحلفن لكم أنه خيركم! والصدق في الزهد يتطلب الاستقامة، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثة أقسام: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة، فأما الزهد الفرض فالزهد في الحرام، وأما الزهد الفضل فالزهد في الحلال، وأما زهد السلامة فالزهد في الشبهات.

واعلم أن الزهد إنما يكون في شيء مقدور عليه، قيل لابن المبارك: يا زاهد. قال: الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت؟ واحذر أن تكون من الزاهدين في الآخرة، قال رجل لأحد الصالحين: ما رأيت أزهد منك، قال: أنت أزهد مني لقد زهدت في دنيا لا بقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت في الآخرة فمن أزهد منك.

وكن رحمك الله واحداً من هؤلاء الذين وافقوا الله تعالى في محبته، فكانوا عبيداً عقلاء عن الله عزَّ وجلَّ أكياسًا محبين، سمعوا الله جل ذكره، ذم الدنيا ووضع من قدرها، ولم يرضها داراً لأوليائه، فاستحيوا من الله عزَّ وجلَّ، أن يراهم راكنين إلى شيء ذمه ولم يرضه، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضًا، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين، فاعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له، فمن زَهِدَ رغبةً في الجنة وخوفًا من النار وحبًا لله جل وعلا ولما اتصف به من صفات الجلال ونعوت الكمال كان من أهل هذه الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (سورة النازعات: ٤٠-٤١). جعلنا الله وإياكم من أهلها بمنه وكرمه.

الصدق في التوكل على الله - عزوجل -

وصف سبحانه حالة المؤمنين يوم الأحزاب في عمق يقينهم وقوة توكلهم فقال: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٢). وذكر القرآن ما كان من الصحابة في حمراء الأسد وذلك صبيحة يوم أحد فقال: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة آل عمران: ١٧٣-١٧٤). وقد أمر سبحانه عباده بالتوكل فقال: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة إبراهيم: ١١). ،وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ (سورة الفرقان: ٥٨). وقال لنبيه ﷺ وللأمة في شخصه الكريم: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩). وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (سورة الطلاق: ٣). أي كافيه، وقال في وصف الكُمَّل من عباده: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (سورة الأنفال: ٢). والآيات في الأمر بالتوكل وفضله كثيرة معلومة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرُّهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه فقال: «هم الذين لا يكتوون ولايسترقون ولا يتطيرون (أي: يتشاءمون) وعلى ربهم يتوكلون»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠/ ٥٧٠٥) «فتح».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت، اللهم أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**»(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا، وقالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»**»(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»(٣). قيل معناه: متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة.

عن جابر رضي الله عنه: «أنه غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبَل معهم، فأدركتهم القائلة (الظهيرة) في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة فعلق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: «**إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا**»، قال: من يمنعك مني؟ قلت: «**الله (ثلاثًا)**»، ولم يعاقبه وجلس»(٤). وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا(•) وتروح بطانًا**»(٥).

فالتوكل هو التصديق لله عزَّ وجلَّ والاعتماد عليه، والسكون إليه والطمأنينة إليه في كل ما ضمن، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق وكل أمر تكفل الله به،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣/ ١١٢٠)، ومسلم «دعاءالتهجد» (٦٧٦٨).
(٢) رواه البخاري (٨/ ٤٥٦٣).
(٣) رواه مسلم (٥٠٧٤).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٦/ ٢٩١٠).
(•) «**خماصًا**»: أي ضامرة البطون من الجوع وترجع آخر النهار، «**بطانًا**»: أي ممتلئة البطون.
(٥) رواه الترمذي (٢٢٦٦)، «الصحيحة» (٣١٠)، وأحمد(١/ ٣٠)،

والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة، فالله مالكه والقائم به، لا يوصله إليه غيره، ولا يمنعه غيره، مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى، والثقة به والعلم الخالص واليقين الثابت، أن يد الله المبسوطة إليه الموفية له من كل ما طلب، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه.

قال الفضيل: المتوكل على الله الواثق به، لا يتهمه ولا يخاف خذلانه، وإذا ملكه الله تعالى شيئًا من أمر الدنيا وفضل عنده، لم يدخره لغد إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله، وموقوف لحقوق الله فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمواساة وقدم الأولى فالأولى من أهله وعياله وذوي قرباه وأهل التقوى ثم لعموم المسلمين، إذا رآهم على حال ضرورة جَبرَ نقص حالهم، ويروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إني لست كأسماء ـ يعني: أختها ـ إن أسماء لا ترفع شيئاً لغد، وأنا أجمع الشيء إلى الشيء»، وكانت عائشة رضي الله عنها لربما فرقت الدراهم وهي ترقع درعها، فتقول لها خادمتها ألا أبقيت درهمًا للحم؟، فتقول لها: «**أفلا ذكرتني**»، فأنفق، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً. وكان مسروق ـ رحمه الله ـ يقول: «أوثق ما أكون بالله إذا قال الخادم: ليس عندنا شيء».

وعدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد. وقد فسر بعض العلماء التوكل بصورة من صور الأخذ بالأسباب كإطفاء السراج وإغلاق الباب، ونحن في توكلنا على ربنا نستدفع قدر الجوع بقدر الأكل وقدر العطش بقدر الشرب، وقدر البلاء بقدر الدعاء، فنأخذ بالسبب كالأكل والشرب ولا نلتفت له بل يكون توكلنا على ربنا في جلب النفع ودفع الضر، ومن هنا قال البعض: ليكن عملك هنا ونظرك في السماء، وقد حكى سبحانه عن خليله إبراهيم

أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (سورة الشعراء: ٨٠). فالذي يتداوى غير ناقص في توكله، إذا علم أن الشافي المعافي هو الله، وكان نظره إلى رب الداء والدواء، وهو سبحانه إن شاء أن ينفع بالدواء وإن شاء أن يضر، فهو جل وعلا الضار النافع.

فالصادق: واثق متوكل على ربه، فإنما توكل عليه، حين علم أنه حسبه من جميع خلقه، فلم يجد فقد شيء منعه الله، لأن الله حسبه وهو بالغ أمره قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ (سورة الطلاق: ٣). قال ابن مسعود رضي الله عنه: قاضي أمره: قد جعل الله لكل شيء قدراً، قال: «**أجلاً ومنتهى ينتهي إليه العبد**»، وليس المتوكل بالذي يقول: تُقضى حاجتي، فالمتوكل على الله هو الذي يعطى ويمنع بقدرته، فالمتوكل قد يُكفى وقد لا يُكفى وتوكله غير ناقص، وإلا فيحيى عليه السلام حين قُتل، وزكريا حين نُشر، ورسول الله ﷺ حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر، كانوا متوكلين على ربهم.

فالتوكل: هو الاعتماد على الله عزَّ وجلَّ والسكون إليه، ثم التسليم بعد ذلك لأمره، يفعل ما يشاء. وقد يُعطى العبد الشيء بلا توكل، ويُنمع وهو متوكل، فقد يرى المجوسي والكافر والجاحد والفاجر المضيع لأمر الله عزَّ وجلَّ الذي لا صدق له ولا يقين وتُقضى له الحوائج، والمتوكل الصادق الموقن لا تُقضى له حاجة، وإنما التوكل ترك السكون إلى الدنيا والانقطاع إليها ونفي الطمع من المخلوقين، والإياس منهم حين علم المتوكل أنه صائر إلى الله، فرضى بالله تعالى، وعلم أنه لا يُدرك بالتوكل، تعجيل ما أخر الله تعالى ولا تأخير ما عجَّل، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع واستراح من عذاب الحرص، وراض نفسه بأدب العلم وقال لنفسه: ما قُدِّر سيكون وما يكون فهو آتٍ، فهذه التمرة التي تأكلها لو لم تأتها لأتتك.

ولكن ليس معنى ذلك أن يترك الإنسان السعي والعمل والتكسب، فما من نبي إلا ورعى الغنم وقد كان رسول الله ﷺ يرعاها على قراريط لأهل مكة[١]. فانتقم من حرصك بالقنوع. كما تنتقم من عدوك بالقصاص، وأحسن التوكل على ربك، تكن غني النفس.

الصدق في الخوف من الله عزَّ وجلَّ

قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (سورة البقرة: ٤٠). وقال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (سورة البقرة: ٤١). وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ (سورة المائدة: ٤٤). وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة النحل: ٥٠). وقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (سورة يونس: ٦١). وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٥). وقال ﷺ: «**والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»[٢]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار جهلاً**»، ولما قيل للشعبي يا عالم، قال: «إنما العالم من يخشى الله»، وذلك لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: ٢٨). وقد أثنى سبحانه على عباده الذين يخافونه بالغيب، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (سورة الملك: ١٢). وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٥٧-٦١).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: **سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية! فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يُتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات»**[٣].

---

(١) رواه البخاري في «الفتح» (٤/ ٢٢٦٢) وابن ماجه، «صحيح الجامع» (٥٥٨١).

(٢) رواه البخاري (٥٦٣٦)، مسلم (٤٣٤٥).

(٣) رواه الترمذي (٣٠٩٩)، «الصحيحة» (١٦٢).

وليس الخائف الذي يبكي ثم يمسح دموعه، ولكن الخائف من يترك ما يخاف أن يُعاقَب عليه، وقال البعض: من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه.

وسئل البعض: متى يكون العبد خائفًا؟ قال: إذا نزَّل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام، وقال الفضيل: «إذا قيل لك هل تخاف الله؟ فاسكت فإنك إن قلت نعم كذبت وإن قلت لا كفرت»، والذي يهيج الخوف حتى يسكن القلب: هو دوام المراقبة لله عزَّ وجلَّ في السر والعلانية، وذلك لعلمك بأن الله تعالى يراك ولا يخفى عليه شيء من حركاتك ظاهرًا وباطنًا، فعند ذلك يجل مقامه عليك في كل حركة ظاهرة وباطنة، وتحذر أن يرى بقلبك شيئًا مما لا يحبه ولا يرضاه بالوقوف منك على همك، إذا كان يعلم ما في نفسك فمن علم أن الله تعالى يراه رجع عن كل ما يكره بعون الله، فطهر قلبه واستنار، وسكنه الخوف ودام حذره من الله، فكان مشفقًا في جميع الأحوال، وعظم أمر الله تعالى، فلم تأخذه في الله لومة لائم، وقل وصغر من دون الله في عينه ممن ضيع أمر الله.

والخوف المحمود: هو الذي يدعو العبد إلى الاستقامة بحيث يعيش طاعة الوقت ويترك التسويف وطول الأمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من خاف أدلج[1]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»**[2].

ومن خاف الله هنا ولم يخش أحدًا سواه أَمَّنَهُ سبحانه في الآخرة، قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ (سورة الطور: ٢٥-٢٨).

---

(١) «الدلجة»: هي السير من أول الليل حذرًا من الحواجز والموانع حتى يبلغ مراده.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٠)، «صحيح الجامع»(٦٢٢٢).

فاصدق في خوفك واترك الذنوب والمعاصي، فكما أنه سبحانه هو الغفور الرحيم فكذلك عذابه هو العذاب الأليم، وكان الحسن يقول: «ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»، وإن قومًا غرتهم أماني المغفرة ذهبوا ولا حسنة لهم وقالوا: نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، فسارع في مرضاته جلَّ وعلاَّ وثق بوعده ولا تيأس من روحه ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف: ٨٧).

الصدق في الحياء من الله تعالى

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[١]، وعنه أيضًا: «**الحياء خير كله**»[٢]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، **قالوا: إنا نستحيي يا رسول الله، قال: «ليس ذاكم، ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة، ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء**»[٣].

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: **قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟، قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»، قلت: يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا ترينها أحدًا»، قلت: يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: «الله أحق أن يستحيا منه من الناس»**[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (١٥٥).
(٢) رواه مسلم (١٥٦).
(٣) رواه أحمد (٣٤٨٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٣٥).
(٤) رواه أحمد (١٩١٨١)، والترمذي (٢٦٩٣)، وصححه الألباني، «آداب الزفاف»، «صحيح الجامع» (٢٠٣).

وإذا كان الحياء شعبة من الإيمان كما ورد في الحديث الصحيح، فعدم الحياء شعبة من شُعب الكفر، وعن أبي مسعود عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**»[1]، والأمر هنا بمعنى التهديد والوعيد، والمعنى إذا لم يكن حياء فاعمل ما شئت فالله يجازيك عليه كقوله سبحانه: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (سورة فصلت: ٤٠).

وقوله: ﴿**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ**﴾ (سورة الزمر: ١٥). وقول النبي ﷺ: «**من باع الخمر فليشقص الخنازير**»[2]. يعني: ليقطعها إما لبيعها أو لأكلها، أو هو أمر ومعناه الخبر، والمعنى: إن من لم يستحِ صنع ما شاء، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء، فمن لم يكن له حياء انهمك في كل فحشاء ومنكر، وما يمنع من مثله من له حياء على حد قوله ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[3]، فإن لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر، وأن من كذب عليه يتبوأ مقعده من النار وقد يكون معنى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت أنه أمر بفعل ما يشاء على ظاهر أمره. وأن المعنى إذا كان الذي يريد فعله مما لا يستحي من فعله لا من الله ولا من الناس؛ لكونه من أفعال الطاعات، أو من جميل الأخلاق والآداب المستحسنة، فاصنع منه حينئذ ما شئت، والحياء منه ما كان خلقا وجبلة غير مكتسب، وهو من أجلّ الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليها، فإنه يكف عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار.

وقد رويَ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «**من استحيا اختفى، ومن اختفى اتقى، ومن اتقى وقى**»، وقال البعض: «تركت الذنوب حياء أربعين سنة ثم أدركني الورع»، وعن بعضهم، قال: رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة.

---

(١) رواه البخاري(١٠/ ٦١٢٠).

(٢) رواه الدارمي (٢٠١٠)، وأحمد (١٧٥٠٤).

(٣) رواه البخاري (١/ ١٠٧).

والنوع الثاني من الحياء: ما كان مكتسبًا من معرفة الله ومعرفة عظمته وقربه من عباده واطلاعه عليهم وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهذا من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان، وقد قال النبي ﷺ لرجل: «**استحِ من الله كما تستحي من رجل من صالح عشيرتك**»[(١)]. وقد يتولد الحياء من مطالعة نعمه تعالى ورؤية التقصير في شكرها، فإذا سلب العبد الحياء المكتسب والغريزي لم يبق ما يمنعه من ارتكاب القبيح والأخلاق الدنيئة، فصار كأنه لا إيمان له.

وعن ابن عباس قال: «**الحياء والإيمان في قرن، فإذا نزع الحياء تبعه الآخر**»، وفي الصحيحين عن ابن عمر: «**أن النبي ﷺ مر على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء يقول: إنك تستحي كأنه يقول قد أضرَّ بك، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان**»[(٢)].

ودخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ وعنده رجل فاستسقى، فأتى بماء فشرب، فستره النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «**الحياء أوتوها ومنعتموها**» ورحم الله امرأة كانت قد فقدت طفلها فوقفت على قوم تسألهم عن طفلها فقال أحدهم: تسأل عن ولدها وهي منتقبة، فسمعته فقالت: لأن أرزأ (أي أصاب) في ولدي خير من أن أرزأ في حيائي.

وخلق الحياء في المسلم غير مانع له أن يقول حقًا أو يطلب علمًا أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، فقد شفع مرة عند رسول الله ﷺ أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه، فلم يمنع الحياء رسول الله ﷺ أن يقول لأسامة في غضب: «**أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة والله لو سرقت فاطمة لقطعت يدها**»[(٣)]، ولم يمنع الحياء أم سليم الأنصارية، أن تقول: **يا رسول الله إنَّ الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟** فيقول لها الرسول ﷺ (ولم يمنعه الحياء): «**نعم إذا رأت الماء**»[(٤)].

---

(١) «السنن».

(٢) رواه البخاري (١٠/٦١١٨).

(٣) رواه البخاري (٦٢٩٠).

(٤) رواه البخاري (١٠/٦١٢١).

وخطب عمر مرة فعرض لغلاء المهور، فقالت له امرأة: أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر؟ ألم يقل الله ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾؟ (سورة النساء: ٢٠). لم يمنعها الحياء أن تدافع عن حق النساء، ولم يمنع الحياء عمر أن يقول معتذراً «**كل الناس أفقه منك يا عمر**»، كما ورد في الحديث المشهور.

ونقيض الحياء! البذاء، و«البذاء»: فحش في القول والفعل وجفاء في الكلام. والمسلم لا يكون فاحشًا ولا متفحشًا، ولا غليظًا ولا جافيًا، إذ هذه صفات أهل النار، يقول النبي ﷺ «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار**»[(١)].

وإذا كان الحياء هو خلق الإسلام، فأسوة المسلم في هذا الخلق الفاضل الكريم رسول الله سيد الأولين والآخرين، إذ كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، كما روى ذلك البخاري عن أبي سعيد وقال فيه: «**فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه**»[(٢)].

الصدق في معرفة نعم الله تعالى والشكر له

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٧٠). وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (سورة إبراهيم: ٣٤). وقال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٤٠). فإذا أفاق العبد من الغفلة فكر ونظر إلى نعم الله تعالى عليه وتكاملها قديمًا وحديثًا.

فأما **نعمه القديمة**: فذكره لك قبل أن تكون شيئًا، وما خصك به من توحيده، والإيمان به، والمعرفة له، فأجرى باسمك القلم في اللوح المحفوظ مسلمًا، ثم أهلك

---

(١) رواه أحمد (١٠١٠٨)، «الصحيحة» (٤٩٥).

(٢) البخاري (١٠/٦١١٩)، ومسلم (٥٩١٨).

القرون السالفة، وجعلك في شرذمة من المؤمنين ناجية، حتى أخرجك في خير أمة، وأكرم دين، ومن أمة حبيبه محمد ﷺ، ثم هداك للسنة واستعملك بالشريعة وباعدك من الزيغ والأهواء، ثم رباك وكلأك وغذاك، حتى وجبت عليك الأحكام فأغفلت نعمته، وفرطت في حفظ وصيته، وركبت هواك من عمرك حينًا، وفي كل ذاك لا يكافئك بإساءتك، بل يستر ويحلم عنك وينظرك، ثم عطف عليك بعد ذلك، بعدما كنت شروداً فأيقظك من الغفلة وعرفك ما فاتك من طاعته، ووهب لك الإنابة إليه وأغدق عليك من طيب مرضاته، فوجب عليك الآن شكر بعد شكر، فأي نعمه تحصى! ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾.

قال النبي ﷺ: **«ما أنعم الله على عبد نعمة، فقال الحمد لله، إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ»** وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أجميل ما يسر أم قبيح ما ستر؟. وقال رجل لأبي تميمة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، لا أدري أيتهما أفضل! ذنوب سترها الله عليَّ فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي. وكان المغيرة، إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: **«أصبحنا مغرقين في النعم عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غنيٌّ عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون»**.

والشكر على ثلاثة وجوه: شكر القلب وشكر اللسان وشكر البدن

فأما **شكر القلب**: فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره.

وأما **شكر اللسان**: فالحمد والثناء عليه، ونشر آلائه، وذكر إحسانه، وأما **شكر البدن**: فلا تستعمل جارحة، أصحها الله تعالى وأحسن خلقها في معصية، بل تطيع الله تعالى بها وكذلك كل ما خولك وملكك من الدنيا جعلته عونًا لك على طاعته ولم تحوله في باطل، ولم تنفقه في سرف، ثم تبذل لله عزَّ وجلَّ الجهد من نفسك،

فقد ثبت في (الصحيحين)، عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكورا**»[1].

وثبت عنه أنه قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة! اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1]، وقال تعالى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾ (سورة سبأ: ١٣). وقال: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ (سورة إبراهيم: ٧).

فالشكر قيد النعم وسبب المزيد، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله، حتى ينقطع الشكر من العبد**». وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: «قيدوا نعم الله بشكر الله».

وعلى العبد أن يستشعر النعم الموجودة في المصيبة فقد قال شريح: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم، ألا تكون كانت في دينه، وأنها تكون أعظم مما كانت، وأنها لابد كائنة فقد كانت. كما عليه أن يحذر التمادي في الغي مع توالي النعم، ففي تفسير قوله سبحانه: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الأعراف: ١٨٢).

قال سفيان: «**يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر**»، وقال البعض: «كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة»، وروي أن موسى عليه السلام ناجى ربه عزَّ وجلَّ وقال: «**يارب أمرتني بالشكر على نعمتك، وإنما شكري إياك نعمة من نعمك، فأوحى الله إليه، لقد علمت العلم، إذ علمت أن ذاك مني فقد شكرتني**».

فاشكروه سبحانه بلسان الحال والمقال، واحمدوه على نعمه يزدكم، ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ (سورة إبراهيم: ٦). وأحسنوا التأسي بسيد الأولين والآخرين وخير الصابرين الشاكرين.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٦٠)، ومسلم (٥٠٤٦).

(٢) أبو دواود (١٣٠١)، «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

الصدق في المحبة

من صدق المحبة لله تعالى، إيثار طاعته جل وعلا في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك، روي أن موسى عليه السلام قال: «يا رب أوصني»، قال الله عزَّ وجلَّ: «أوصيك بي»، قال: «يارب كيف توصيني بك؟»، قال: «لا يعرض لك أمران، أحدهما لي والآخر لنفسك، إلا آثرت محبتي على هواك». فالمحب لله، دائم الذكر له سبحانه بقلبه ولسانه، انتهى عن الغفلة واستغفر منها، فهو غير ساهٍ ولا لاهٍ، وإنما همه، أن يُرضي مَن أحبه، فقد بذل المجهود في موافقته وفي أداء فرائضه واجتناب مناهيه، وقد تزين له بكل طاقته حذراً من أن يأتي عليه أمر يسقطه من عين من أحبه، وفي الحديث القدسي، الذي رواه البخاري[1] يقول النبي ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: «ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»، فهذا هو طريق المحبة الصادقة: الإيمان بالله ثم متابعة الفرائض بالنوافل، واستفراغ الوسع في ذلك بحيث يحب الله تعالى عند النعم وعند فقدها وعلى كل حال منعه أو أعطاه، ابتلاه أو عافاه.

فالمحبة لازمة لقلبه، وقد أسقطت المحبة لله تعالى عن قلبه الكبر والغل والحسد والبغي، وكأنه ليست نعمة على أحد إلا وهي عليه قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (سورة البقرة: ١٦٥). وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (سورة المائدة: ٥٤)، ورويَ: «أحبوا الله لما يغدوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»، ويقول الحسن البصري: «ادعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (سورة آل عمران: ٣١)».

---

(١) رواه البخاري، سبق تخريجه.

فمن صدق المحبة: اتباع الرسول ﷺ في هديه وأخلاقه والتأسي به في أحواله، فإن الله عزَّ وجلَّ جعل محمداً ﷺ علمًا ودليلاً وحجة على أمته وفي الحديث: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**[(١)]، وقال ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«لا حتى أكون أحب إليك من نفسك»**[(٢)].

ونحن نعبد ربنا جل وعلا لذاته ولما اتصف به من صفات الكمال ونعوت الجلال، وخوفًا من ناره وطمعا في جنته، فمن عبد الله بالحب فقط فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء فقط فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف فقط فهو حروري[(٣)]. وما نُسب لرابعة العدوية في قولها: «أنا أعبد الله لا خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته ولكن أعبده حبًا لذاته»، فهو غير مقبول لأن الله تعالى أثنى على أنبيائه وأوليائه، فقال: ﴿**كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠). ﴿**يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ (سورة الإسراء: ٥٧).

وكان النبي ﷺ[(٤)] ـ هو سيد ولد آدم ـ يسأل ربه الجنة ويتعوذ به من النار.. وكان الفضيل يقول: «الحب أفضل من الخوف»، وسئل البعض: كيف تخاف ألا يحبك وأنت تحبه؟ فقال: أنا أحبه لما أولاني وما ندَّاني (أي ما أسبغ عليَّ)، من معرفته ونعمه ولي ذنوب أخاف أن لا يحبني لما كسبت، ولذلك قال البعض: «من أُعطى من المحبة سيئًا فلم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع».

فعليك بتربية أولادك على محبة الله، فقد أوصت امرأة من السلف بنيها فقالت: «بني تعودوا حب الله وطاعته فإن المتقين ألفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحهم من

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٥).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٦٦٣٢).

(٣) (نسبة للخوارج الذين اعتصموا بحروراء)

(٤) رواه أبو دواود (٦٧٢)، «صحيح الجامع» (٣١٦٣).

غيرها فإذا عرض لهم الملعون (أي الشيطان) بمعصية فرت منهم المعصية محتشمة فهم لها منكرون، واحذر أن توالي أعداء من تحب، فقد قال البعض:

تحب أعداء الحبيب وتدعى ■■ حبًا له ما ذاك في إمكان

وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فمن أحب الله، أحب أنبياءه وأولياءه وكلامه وطاعته سبحانه، وهذا من مقتضيات الصدق في المحبة، أما من أحب الغناء والرقص والموسيقى والفحش والتفحش ووالى الفساق والملحدين والفجار فمحبته عبارة عن زعم وادعاء، وليعلم أن العملة الزائفة لا تروج على الله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة النمل: ٦٤).

وغدًا ينكشف الغطاء ويتبين لمن كانت بضاعته النفاق، أن ما حصله كان سرابًا ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة النور: ٣٩).

الصدق في الرضا عن الله عزوجل

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سورة النساء: ٦٥). قال بعض العلماء: «ما شهد الله تعالى لهم بالإيمان حين لم يرضوا بحكم نبيه»، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه عزَّ وجلَّ، وعلامة الرضا سرور القلب بمر القضاء وتلقي المصائب بالرجاء والبشر، ولما لا وحال المؤمن كله خير له، إن أصابته نعماء شكر وإن أصابته ضراء صبر، وكان النبي ﷺ لا يقول لخادمه لشيء قط لم فعلت أو ألا فعلت، إنما كان يقول: «**كذا قضى وكذا قدر**»، كما يروى[1] أنس رضي الله عنه، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «**لو أن الصبر والشكر**

(١) «السنن».

بعيران لي ما أبالي على أيهما ركبت»، ويروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «**حبذا المكروهات، وأيم الله، ما هو إلا الغنى والفقر، وإن حق كل واحد منهما لواجب، إن كان الغنى، فإن فيه العطف، وإن كان الفقر فإن فيه الصبر**»، وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ: «**أصبحت وما لي في الأمور من اختيار**».

فلا يكثر همك ما يقدر يكن وما ترزق تأكله، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كبير، وقال البعض: إذا استَتَمَّ في العبد الزهد والتوكل والمحبة واليقين والحياء صح له الرضا، وقال بعضهم: الرضا قليل ومعول (سلاح) المؤمن: الصبر.

ويروى أن النبي ﷺ عندما ناله ما ناله من الأذى يوم الطائف، رفع يده اليمنى يدعو بها ربه، ويده اليسرى يصد بها الأذى، وقال في ثنايا دعاءه: «**اللهم إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي**»، وقال جل ذكره: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾ (سورة الفجر: ٢٧-٢٨). فالرضا: تعجله العقلاء عن الله عزَّ وجلَّ في الدنيا قبل الآخرة فخرجوا من الرضا إلى الرضا وهكذا قال سبحانه عن صحابة نبيه ﷺ: ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ** ﴾ (سورة التوبة: ١٠٠).

فإذا كانت غايتنا هي مرضاة ربنا، وهذا الذي نتمناه من وراء الأقوال والأفعال فعلينا أن نتابع سبيل سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين الذين أثنى عليهم سبحانه بقوله: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ (سورة التوبة: ١٠٠).

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف، وما لم يكن يومئذ دينا فليس باليوم دينًا، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

الصدق في الشوق إلى لقاء الله والأنس بذكره سبحانه

المؤمن شديد الشوق لربه يتمنى لقاءه في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، له حظه ونصيبه مما كان عليه نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (سورة هود:٧٥). وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أسألك لذة العيش بعد الموت،والنظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك**»[١]، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «**أُحبُّ الموت اشتياقًا إلى ربي**». وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال عند الموت: «حبيب جاء على فاقة[٢] لا أفلح من ندم، وكان علي بن سهل المدائني يقوم إذا هدأت[٣] العيون فينادي بصوت له مخزون: «يا من اشتغلت قلوب خلقه عنه بما يعقبهم عند لقائه ندمًا، ويا من سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه إذ كانت أياديه[٤] إليهم قبل معرفتهم به» ثم ينادي: «ليت شعري سيدي إلى متى تحبسني[٥] ابعثني سيدي إلى حسن وعدك، وأنت العليم أن الشوق قد برح بي، وطال عليَّ الإنتظار».

وكان الحارث بن عمير يقول إذا أصبح: «أصبحت ونفسي وقلبي مُصرٌّ على حبك سيدي، ومشتاق إلى لقائك فعجل بذلك قبل أن يأتيني سواد الليل»، فإذا أمسى قال مثل ذلك. والمشتاق يخاف أن لا يصل إلي محبوبه، وأن يُقطع به دونه ويُحال بينه وبينه ويُحجب عنه، ثم يخاف أن تحدث حادثة، إذ كان في دار البلوى فقد طالت عليه الأيام والليالي إلى أن يخرج من الدنيا سالمًا على الأمر الذي يرضي مولاه، ثم المستأنس قريب من الله عزَّ وجلَّ، وهكذا ثبت عن النبي ﷺ حين أتاه

---

(١) رواه النسائي (١٢٨٨)، «صحيح الجامع» (١٣٠١).
(٢) (وهي شدة الحاجة إلى الشيء).
(٣) (نامت).
(٤) (نعمه).
(٥) (تقضي ببقائي).

جبريل عليه السلام في صورة رجل فسأله عن الإسلام والإيمان، ثم سأله عن الإحسان، فقال له النبي ﷺ: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فقال له صدقت»**[(١)]. وقال النبي ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: **«اعبد الله كأنك تراه، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**[(٢)]، وقد بيَّن النبي ﷺ مظنة القرب فقال: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فَقَمِنٌ أَنْ يستجاب لكم»**[(٣)]، فمن استشعر معاني القرب، كان منه الحذر والخشية والمسارعة في طلب رضاه ليراه منافسًا راغبًا، يريد القربة إليه والمبالغة في محبته ويصبر في وقت بلواه ومصيبته ويتحمل لسيده ما يقربه من ثوابه لأنه سمع الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ (سورة الأنفال:٤٦). وقال: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ (سورة الطور:٤٨). فيسهل عليه عند ذلك الصبر واحتمال مؤنته.

روي عن عروة بن الزبير، أنه خطب إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ابنته وهو يطوف ببيت الله الحرام، فلم يجبه ابن عمر، ولم يرد عليه جوابًا ثم لقيه عبد الله بعد ذلك فقال له: **«إنك كلمتني في الطواف ونحن نتخيل الله بين أعيننا»**.

وفي الحديث القدسي: **«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...»**[(٤)]، والمستأنس تذهب عنه الوحشة في المواطن التي يفرغ فيها الناس، وذلك للذي استولى عليه من قرب الله عزَّ وجلَّ وعذوبة ذكره ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سورة الرعد:٢٨). وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد محبة إلى لقائه للمذكور واشتياقًا وإذا واظأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٥٠).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٦٤١٦).

(٣) رواه مسلم (١٠٦٤)، (١٠٥٧)، وأبو داود.

(٤) رواه البخاري، سبق تخريجه.

قال الحسن البصري: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعملوا أن الباب مغلق». قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (سورة البقرة:١٥٢). وفي الحديث القدسي: «**فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفس وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم..**»[١]، وذكر الله من أعظم أسباب نزول الرحمة والسكينة كما قال النبي ﷺ: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**»[٢]. والذكر سبب لصلاة الله تعالى وملائكته على الذاكر وهذا موجب لفلاحه وسعادته وفوزه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب:٤١:٤٣). كما أن الذكر يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد وتعاسته في معاشه ومعاده فإن نسيان الرب سبحانه، يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (سورة الحشر:١٩) . كما أن الذكر شفاء لقسوة القلوب ومرضها. وكان مكحول يقول: «ذكر الله شفاء، وذكر الناس داء».

فاللهم اجعلنا لك ذكّارين لك شكّارين لك مطواعين، لك منيبين، إليك أوّاهين، رب اغسل حوبتنا وأقل عثرتنا برحمتك يا أرحم الراحمين، واجعل اللهم القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا، كما نسألك يا ربنا حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك، واجعل حبك أحب إلينا من المال والأهل والماء البارد.

---

(١) رواه البخاري «مختصر» (١٨٨٦)، ومسلم (٦٧٠٦)، «صحيح الجامع» (٨١٣٧).

(٢) رواه مسلم (٦٧٢٨).

صدق الأنبياء وعصمتهم

وهذه الصفة ملازمة للنبوة، وهي وإن كانت ضرورية للبشر إلا أنها بالنسبة لدعوة الأنبياء صفة لازمة، بل هي من الصفات الفطرية فيهم، فلا يمكن للنبي (أي نبي كان) أن يصدر منه ما يخل بالمروءة، كالكذب والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل، وغيرها من الصفات القبيحة، لأن هذه الصفات لا تليق برجل عادي، فكيف بنبي مقرب أو رسول مكرم؟! ولو جاز وقوع الكذب من الأنبياء، لما أصبح هناك ثقة فيما ينقلونه من أخبار الوحي أو يروونه عن الله عزَّ وجلَّ. . إذ يحتمل أن يكون ذلك من الأمور التي جاءوا بها من تلقاء أنفسهم، أو اخترعوها من بنات أفكارهم، ثم نسبوها إلى الله (وحاشاهم من ذلك) كذبًا وزورًا.

وقد وصف الله أنبياءه بالصدق فقال عن نبيه ﷺ: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الصافات:٣٧). وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (سورة مريم:٤١). وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (سورة مريم:٥٤). وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة يوسف:٥١). وهكذا توالى الثناء على الأنبياء والمرسلين بهذا الوصف المحمود.

فمن المزايا التي امتاز بها الأنبياء على بقية البشر، بعدهم عن اقتراف المعاصي وعزوفهم عن الشهوات واجتنابهم لكل ما يخل بالمروءة، أو يهدر الكرامة أو يحط من قدر الإنسان، فهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أكمل الناس خلقا، وأزكاهم عملاً وأطهرهم نفسًا وأعطرهم سيرة، لأنهم القدوة للبشر وهم الأسوة الحسنة، ولذلك أمر الله عزَّ وجلَّ بالاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم والسير على منهاجهم في جميع شئون الحياة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠). والعصمة التي تمنع من ارتكاب الذنوب والمعاصي ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها، فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام حيث وهبهم الله هذه النعمة العظمى وحفظهم من

ارتكاب الرذيلة، وكيف يصح أن يأمر القائد بالفضيلة وينهى عن الرذيلة، ثم يرتكب هو الفواحش والمنكرات.

فالمعاصي والذنوب ما هي إلا نجاسات معنوية، وهي تشبه القاذورات والنجاسات الحسية، فكيف يجوز نسبتها إلى الأنبياء والرسل الكرام، وفي الحديث: **«من أتى شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»**، وقال القرطبي: واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين صغائر من الذنوب، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيله فيها شين أو نقص إجماعًا، فقال جمهور الفقهاء، إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنَّا أُمرنا باتباعهم، في أفعالهم وآثارهم وسيرهم، أمرًا مطلقًا من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة، أو الحظر والمعصية، ولا يصح أن يُؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية.

وقال أبو إسحاق الاسفرائيني من علماء أهل السنة: لا يقع من الأنبياء ذنوب لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر، وذلك مقتضى دليل المعجزة، وقال بعضهم بوقوع الصغائر منهم، ولا أصل لهذه المقالة، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم.

وقال بعض المتأخرين: الذي ينبغي أن يقال: أن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الخطأ والنسيان فهي بالنسبة إلى غيرهم (حسنات) وفي حقهم (سيئات) ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه الأجير، قال القرطبي: وهذا هو الحق، فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم

ولا قدح في رتبهم بل تلافاهم واجتباهم وهداهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. (القرطبي ١١/ ٢٥٥).

وما ورد في النصوص من هفوات بدرت من الأنبياء كأكل آدم من الشجرة التي نهى عن الأكل منها، وكقتل موسى للرجل الذي هو من شيعة فرعون.. فقد حملها العلماء على بعض الوجوه الآتية:

١ ـ أنها ليست معصية وإنما هي فعل خلاف الأولى.

٢ ـ أنها ليست معصية ولكنها خطأ الاجتهاد.

٣ ـ على فرض أنه مخالفة ومعصية فإنها قد وقعت قبل النبوة.

وهذه الهفوات كما نرى لم يحدث منهم إصرار عليها، بل تابعوها بالاستغفار والتوبة والحسنات الماحية وأشفقوا على أنفسهم، فهذا نبي الله موسى يقول: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة القصص:١٧). وقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (سورة القصص:١٥). ثم هو يوم القيامة عندما تذهب إليه الخلائق ليشفع لهم يجيبهم ويقول: «إني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها رب نفسي نفسي»، وإذا كان أهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة، وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة بل المجرئة على الشرور والمفاسد، والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقيدتهم، وهى أن المسيح هو المعصوم وحده لأنه رب وإله، ولأنه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له، وأنه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره، لأن المخطىء لا يخلص المخطئين وهو منهم، فهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء وكتبهم وللعقل ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها، فلا علاقة لنا بهذه الافتراءات والأكاذيب وهذه التحريفات الموجودة عندهم، فلابد في النبي أن يكون معصومًا وهذا يوجبه الشرع ويقتضيه العقل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء:٧٣).

الصادق المصدوق ﷺ

اشتهر الرسول ﷺ منذ الصغر بالصدق والأمانة، حتى كان المشركون يسمونه (الصادق الأمين)، فيقولون: جاء الصادق الأمين، وذهب الصادق الأمين، وهكذا كان النبي ﷺ قبل البعثة علمًا بين قريش في صدقه وأمانته وعلو مكانته، وقد وصفه القرآن بذلك في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(•) (سورة الحاقة: ٤٤:٤٦). ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الحاقة: ٤٧-٤٨).

يقول سيد قطب في (الظلال): «وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرهيب لمن يفتري على الله في شأن العقيدة، وهى الجد الذي لا هوادة فيه يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره وهو صدق الرسول ﷺ وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه. . . ، ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية، أن محمدًا ﷺ صادق فيما أبلغهم، وأنه لو تقول بعض الأقاويل، التي لم يوحَ بها إليه لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو ﷺ لابد صادق». ا.هـ.

وروى البخاري قصة هرقل ملك الروم مع أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه عندما كان في تجارة بالشام، وكيف أوقفه هرقل وصفَّ القوم خلفه وسأله أسئلة عشرة علم منها هرقل صدق النبي ﷺ وأنه سيملك موضع قدمي هرقل، وكان من جملة هذه الأسئلة: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: ما عرفنا عليه كذبًا قط، فأجابه هرقل، قلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[1]. وكثيراً ما كان يصفه الصحابة ﷺ بالصادق المصدوق كقول ابن

(•) (عرق متصل بالقلب إذا قُطع مات صاحبه).

(١) سبق تخريجه.

مسعود رضي الله عنه: حدثنا الصادق المصدوق ﷺ: «يجُمع أحدكم في بطن أمه، أربعين يومًا نطفة، ثم أربعين يومًا علقة، ثم أربعين يومًا مضغة...»[1] الحديث.

وهذا الوصف لم يقتصر إطلاقه عند حد الصحابة، بل حتى ألدّ أعدائه كانوا يصفونه ﷺ بذلك، رويَ أن رجلاً من سادة قريش، لقى أبا جهل في أحد طرقات مكة فاستوقفه ثم قال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك أنشدك بالله هل محمد صادق أم كاذب؟ فأجابه أبو جهل بكل صراحة: والله إن محمدًا صادق، وما كذب قط.. قال فما الذي يمنعكم من اتباعه؟ فقال له أبو جهل: تنافسنا نحن وبنو هاشم، وتنازعنا الزعامة والفخر فأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا كفرسي رهان، ثم زادوا علينا فقالوا: بعث منا نبي، فمن أين نأتيهم بنبي؟ والله لا نؤمن به ولا نتبعه. وفي هذا يقول سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (سورة الأنعام:٣٣). فهذا هو عدو الله وفرعون هذه الأمة يقر ويعترف بصدق الرسول ﷺ وما منعه من اتباعه إلا حبه للزعامة والرئاسة الزائفة والكاذبة.

دلائل نبوته وصدقه ﷺ

لا شك أن القرآن الكريم هو أعظم دلائل نبوة رسول الله ﷺ وصدقه، هذا الكتاب الذي تحدى به الله الإنس والجن على مر العصور ومر الدهور، أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة:٢٤). وقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (سورة الطور:٣٤). على الرغم من أن العرب هم أرباب الفصاحة والبلاغة، والقرآن فيه خبر مَن قبلنا ونبأ من بعدنا وحكم ما بيننا، وقد اشتمل على كل صور

(١) رواه البخاري (٢٩٦٩)، ومسلم (٦٥٩٩)، وأهل السنن، «صحيح الجامع» (١٥٤٣).

الإعجاز البلاغي والحكمي التشريعي والعلمي والطبي، وهو في الأصل كتاب هداية للبشرية جمعاء، وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء: ٨٢).

ومن جملة هذه الدلائل[1] تسبيح الحصا في كفه، وانقياد الشجر لرسول الله، وحنين الجذع شوقًا إليه، وتكثيره عليه السلام الأطعمة للحاجة إليها، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ومعجزات دعواته ﷺ في المواطن الكثيرة، كما حدثت معجزات لرسول الله مماثلة لمعجزات جماعة من الأنبياء قبله، ومن أعظم هذه الدلائل أخلاقه الطاهرة ﷺ، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»: وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله من آياته، أي من دلائل نبوته، قال: وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته من آياته ودينهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته.

وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين وُلد إلى أن بُعِثَ ومن حين بُعِثَ إلى أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفضله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبًا من صميم سلالة إبراهيم عليه السلام، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم عليه السلام نبي إلا من ذريته، وجعل الله له ابنين: إسماعيل وإسحاق وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل ولم يكن من ولد إسماعيل من ظهر فيه ما بشرت به النبوات غيره، ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، ثم الرسول ﷺ من قريش صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى وبلد البيت الذي بناه إبراهيم ودعا الناس إلى حجه ولم يزل محجوجًا من عهد إبراهيم مذكورًا في كتب الأنبياء بأحسن وصف.

---

(١) قال شيخ الإسلام: «جمعت أكثر من ألف معجزة».

وكان ﷺ من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفًا بالصدق والبر ومكارم الأخلاق والعدل وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم مشهودًا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، ومن آمن به، ومن كفر بعد النبوة، ولا يعرف له شيء يعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه، ولا جرب عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة.

وقد كان ﷺ خلقه وصورته من أحسن الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله، وكان أميًا من قوم أميِّين لا يعرف هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، ولم يقرأ شيئًا من علوم الناس، ولا جالس أهلها ولم يدعِ نبوةً إلى أن أكمل الله له أربعين سنة، فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبر بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله، ثم اتبعه أتباع الأنبياء وهم ضعفاء الناس وكذبه أهل الرياسة وعادوه، وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم، والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جاهات يوليهم إياها ولا كان له سيف بل كان السيف والجاه والمال مع أعدائه، وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم، فيجتمع في الموسم قبائل العرب، فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة ويدعوهم إلى الله صابرًا على ما يلقاه من تكذيب المكذب، وجفاء الجافي، وإعراض المعرض، إلى أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود وقد سمعوا أخباره منهم، وعرفوه، فلمَّا دعاهم، علموا أنه النبي المنتظر الذي يخبرهم به اليهود، وكانوا سمعوا من أخباره أيضًا ما عرفوا به مكانته فإن أمره كان قد انتشر وظهر في بضعة عشرة سنة، فآمنوا به وبايعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم، وعلى الجهاد معه، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار

ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية، ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم، ثم أذن له في الجهاد، ثم أمر به، ولم يزل قائمًا بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها، من الصدق والعدل والوفاء لا يحفظ له كذبة واحدة، ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال، من حرب وسلم وأمن وخوف، وغنى وفقر، وقدرة وعجز، وتمكن وضعف، وقلة وكثرة، وظهور على العدو تارة، وظهور العدو تارة، وهو على ذلك كله لازم لأكمل الطرق وأتمها.

حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معادًا، فصاروا أعلمَ أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا: «ما كان الذين صحبوا المسيح أفضل من هؤلاء،وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال. مات ولم يخلف درهمًا ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيرًا، إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يورث ولا يأخذ ورثته شيئًا من ذلك.

وهو في كل وقت يظهر من عجائب الآيات وفنون الكرامات، ما يطول وصفه، ويخبرهم بما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ويُشرع الشريعة شيئًا بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعثه به وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه.

لم يأمر بشيء فقيل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل: ليته لم ينه عنه وأحل لهم الطيبات، لم يُحرِّم منها شيئًا كما حُرِّم في شريعة غيره، وحرم الخبائث لم يُحل منها شيئًا، كما استحل غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يُذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن الملائكة وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في الكتب، وليس في الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفصل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به، وبما هو أحسن منه وإذا نظر اللبيب في العادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر له فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع، وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة. وإذا قِيسَ علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قِيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهادًا وأشجع قلوبًا، وإذا قيس سخاءهم وبرّهم وسماحة أنفسهم بغيرهم ظهر أنهم أسخى وأكرم من غيرهم.

وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعض الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا (لما غيروا دين المسيح) في دين المسيح أمورًا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح وأمّا أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرؤون كتابا، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوارة والإنجيل والزبور إلا من جهته.

وهو الذي أمرهم أن يُؤمنوا بجميع الأنبياء ويُقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم عن أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء

به: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة: ١٣٦-١٣٧). وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥-٢٨٦). الآية.

وأمته عليه السلام لا يستحلون أن يوجدوا شيئًا من الدين غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، لكن ما قصَّه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به، وما حدثهم أهل الكتاب موافقًا لما عندهم صدقوه وما لم يُعلم صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه، وما عرفوا بأنه باطل كذبوه، ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند والفرس واليونان أو غيرهم، كان عندهم من أهل الالحاد والابتداع.

وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمة الدين الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم ومن خرج عن ذلك كان مذمومًا مدحوراً عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة الظاهرين إلى قيام الساعة، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة**»[1].

وقد يتنازع بعض المسلمين مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عمومًا، ودين محمد ﷺ خصوصًا ومن خالف هذا الأصل كان عندهم ملحدًا مذمومًا، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا دينًا ما قام به أكابر علمائهم وعبادهم، وقاتل

(١) رواه البخاري (١٣/ ٧٣١١)، ومسلم «مختصر» (١٠٩٥)، «صحيح الجامع» (٧٢٨٩).

عليه ملوكهم، ودان به جمهورهم، وهو دين مبتدع ليس هو دين المسيح ولا دين غيره من الأنبياء، والله سبحانه أرسل رسله بالعلم النافع، والعمل الصالح، فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة، وإنما دخل في البدع من قصر في اتباع الأنبياء علمًا وعملاً.

ولما بُعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، تلقى ذلك عنه، المسلمون من أمته فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد أخذوه عن نبيهم، كما ظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم هو في الأصل المعلم، وهذا يقتضي أنه عليه السلام كان أكمل الناس علمًا وديناً، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقًا في قوله: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٨).

لم يكن كاذبًا مفتريًا، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقًا، أو من هو من أشر الناس وأخبثهم إن كان كاذبًا، وما ذكر من كمال علمه ودينه يناقض الشر والخبث والجهل فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقًا في قوله: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، لأن الذي لم يكن صادقًا إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئًا، والأول يوجب أنه كان ظالمًا غاويًا، والثاني يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً، ومحمد ﷺ كان علمه ينافي جهله، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب.

فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن يتعمد الكذب ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقًا عالمًا بأنه صادق، ولهذا نزَّهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (سورة النجم: ١-٤).

وقال تعالى عن الملك الذي جاء به: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (سورة التكوير: ١٩-٢١). ثم قال عنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة التكوير: ٢٢-٢٧). وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥). إلى قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٣). بيَّن سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه، فإن الشيطان يقصد الشر وهو الكذب والفجور ولا يقصد الصدق والعدل، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب، إما عمداً وإما خطأ وفجور أيضًا، فإن الخطأ في الدين هو من الشيطان أيضًا.

كما قال ابن مسعود لما سئل عن مسألة: «**أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه**»، فإن رسول الله برئ من تنزل الشياطين عليه في العمد والخطأ بخلاف غير الرسول فإنه قد يخطىء ويكون خطؤه مغفوراً له، فإذا لم يُعرف له خبر أخبر به كان فيه مخطئًا ولا أمرٌ أمر به كان فيه فاجرًا، علم أن الشيطان لم ينزل عليه وإنما ينزل عليه ملك كريم، ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الحاقة: ٤٠-٤٣). انتهى ما ذكره.

بعض الأخبار الصادقة
التي وقعت كما أخبر ﷺ

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في (كتاب شمائل الرسول): «وهذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيه لكثرتها، ولكن نحن نشير إلى طرف منها والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وذلك منتزع من القرآن ومن الأحاديث.

أما القرآن، فقال تعالى في سورة المزمل وهي من أوائل ما نزل بمكة: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (سورة المزمل: ٢٠). ومعلوم أن الجهاد لم يُشَرَّع إلاَّ بالمدينة بعد الهجرة، وقال تعالى في سورة اقترب وهي مكية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (سورة القمر: ٤٤-٤٥). ووقع هذا يوم بدر وقد تلاها رسول الله ﷺ وهو خارج من العريش ورماهم بقبضة من الحصاء فكان النصر والظفر وهذا مصداق ذاك، وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (سورة المسد: ١- ٥). فأخبر أن عمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب الملقَّب بأبي لهب سيدخل النار هو وامرأته، فقدر الله عزَّ وجلَّ أنهما ماتا على شركهما لم يُسلما، حتى ولا ظاهرًا، وهذا من دلائل النبوة الباهرة.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء: ٨٨)، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ (سورة البقرة: ٢٣-٢٤)، الآية فأخبر أن جميع الخليقة لو اجتمعوا وتعاضدوا وتناصروا وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته، وحلاوته، وإحكام أحكامه، وبيان حلاله وحرامه، وغير ذلك من وجوه إعجازه، لما استطاعوا ذلك، ولما قدروا عليه، ولا على عشر سور منه، بل ولا

سورة، وأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، ولن لنفي التأبيد في المستقبل، ومثل هذا التحدي وهذا القطع وهذا الإخبار الجازم، لا يصدر إلا عن واثق بما يخبر به عالم بما يقوله، قاطع أن أحدًا لا يمكنه أن يعارضه، ولا يأتي بمثل ما جاء به عن ربه عزَّ وجلَّ، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (سورة النور:٥٥) الآية. وهكذا وقع سواء بسواء. مكَّن الله هذا الدين وأظهره، وأعلاه ونشره في سائر الآفاق وأنفذه وأمضاه، وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بخلافة الصديق، ولا شك في دخوله فيها، ولكن لا تخص به، بل تعمه كم تعم غيره كما ثبت في الصحيح: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[1]. وقد كان ذلك في زمن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ وأرضاهم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة:٣٣). وهكذا وقع وعمَّ هذا الدين، وغلب وعلا على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمته في زمن الصحابة ومن بعدهم، وذلت لهم سائر البلاد، ودان لهم جميع أهلها على اختلاف أصنافهم، وصار الناس إما مؤمن داخل في الدين، وإما مهادن باذل الطاعة والمال، وإما محارب خائف وجل من سطوة الإسلام وأهله وقد ثبت في الحديث: «**إن الله زوى(•) لي مشارق الأرض ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[2]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ (سورة الفتح:١٦). الآية وسواء كان هؤلاء هوازن أو أصحاب مسيلمة أو الروم فقد وقع ذلك، وقال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ

---

(١) رواه أحمد والبخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٧١٨٩)، «صحيح الجامع» (٨٤٦).

(•) جمع.

(٢) رواه مسلم (٧١١٨).

كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (سورة الفتح: ٢٠-٢١). وسواء كانت هذه الأخرى خيبر أو مكة فقد فتحت وأخذت كما وقع به الوعد سواء بسواء، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (سورة الفتح: ٢٧). فكان هذا الوعد في سنة الحديبية عام ست، ووقع إنجازه في سنة سبع عام عمرة القضاء في حديث عمر قال: **يا رسول الله ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفاخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال: «فإنك تأتيه وتطوف به»** (١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ (سورة الأنفال: ٧). وهذا الوعد كان في وقعة بدر، لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة ليأخذ عير قريش، فبلغ قريشًا خروجه إلى عيرهم، فنفروا في قريب من ألف مقاتل. فلما تحقق رسول الله ﷺ وأصحابه قدومهم، وعده الله إحدى الطائفتين أن سيظفره بها، إما العير وإما النفير فود كثير من الصحابة ممن كان معه أن يكون الوعد للعير، لما فيه من الأموال وقلة الرجال، وكرهوا لقاء النفير لما فيه من العدد والعُدد، فخار الله لهم وأنجز لهم وعده في النفير، فأوقع بهم بأسه الذي لايُرد فقتل من سراتهم سبعون وأُيسرَ سبعون وفادوا أنفسهم بأموال جزيلة، فجمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال: ٧). وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال: ٧٠). وهكذا وقع، فإن الله عوض من أسلم منهم بخير الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٧٣١-٢٧٣٢).

ومن ذلك ما ذكره البخاري[1] أن العباس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «**يا رسول الله أعطني، فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلا**، فقال له رسول الله ﷺ: «**خذ**» **فأخذ في ثوب مقداراً لم يمكنه أن يُقلّه، ثم وضع منه مرة بعد مرة حتى أمكنه أن يحمله على كاهله وانطلق به...**» وهذا من تصديق هذه الآية الكريمة، وقال تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ** ﴾ (سورة التوبة:٢٨). الآية وهكذا وقع، عوضهم الله عما كان يغدون إليهم مع حجاج المشركين، بما شرعه لهم من قتال أهل الكتاب، وضرب الجزية عليهم، وسلب أموال من قتل منهم على كفره، كما وقع بكفار أهل الشام من الروم، ومجوس الفرس بالعراق، وغيرها من البلدان التي انتشر الإسلام على أرجائها وحكم على مدائنها وفيفائها، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ (سورة التوبة:٣٣). وقال تعالى: ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** ﴾ (سورة التوبة:٩٥). الآية وهكذا وقع، لما رجع ﷺ من غزوة تبوك كان قد تخلف عنه طائفة من المنافقين، فجعلوا يحلفون بالله لقد كانوا معذورين في تخلفهم وهم في ذلك كاذبون، فأمر الله رسوله أن يجري أحوالهم على ظاهرها ولا يفضحهم عند الناس، وقد أطلعه الله على أعيان جماعة منهم أربعة عشر رجلاً. فكان حذيفة بن اليمان ممن يعرفهم بتعريفه إياه ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ (سورةالإسراء:٧٦). وهكذا وقع لما اشتوروا عليه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه من بين أظهرهم، ثم وقع الرأي على القتل، فعند ذلك أمر الله رسوله بالخروج من بين أظهرهم، فخرج هو وصديقه أبو بكر، فكمنا في غار ثور ثلاثًا، ثم ارتحلا بعدها. وهذا هو المراد بقول: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ**

(١) رواه البخاري (٢٨٢١).

كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ٤٠). وهو المراد من قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠). ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٧٦). وقد وقع كما أخبر.

فإن الملأ الذين اشتوروا على ذلك لم يلبثوا بمكة بعد هجرته ﷺ إلا ريثما استقر ركابه الشريف بالمدينه وتابعه المهاجرون والأنصار، ثم كانت وقعة بدر فقتلت تلك النفوس وكسرت تلك الرءوس، وقد كان ﷺ يعلم ذلك قبل كونه من إخبار الله له بذلك، ولهذا قال سعد بن معاذ لأمية بن خلف: أما إني سمعت محمداً ﷺ يذكر أنه قاتلك، فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم، قال: فإنه والله لا يكذب[1]. . قال: «وقد قدمنا أنه عليه السلام جعل يشير لأصحابه قبل الوقعة إلى مصارع القتلى، فما تعدى أحد منهم موضعه الذي أشار إليه صلوات الله وسلامه عليه»، وقال تعالى: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم: ١-٦). وهذا الوعد وقع كما أخبر به.

وذلك أنه لما غلبت فارس الروم فرح المشركون واغتمَّ بذلك المؤمنون لأن النصارى أقرب إلى الإسلام من المجوس فأخبر الله رسوله ﷺ بأن الروم ستغلب الفرس بعد هذه المدة بسبع سنين، وكان من أمر مراهنة الصديق رءوس المشركين على أن ذلك سيقع في هذه المدة ما هو مشهور. . فوقع الأمر كما أخبر به القرآن، غلبت الروم فارس بعد غلبهم غلبا عظيمًا جداً. . . وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة فصلت: ٥٣). وكذلك وقع، أظهر الله من آياته ودلائله في أنفس البشر وفي الآفاق بما أوقعه من

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٩٥٠).

البـأس بأعداء الـنبوة ومـخـالفي الشـرع، ممن كذَّب به من أهل الـكتابين والمجـوس والمشركين، ما دلَّ ذوي البصائر والنُّهي على أن محـمدًا رسول الله حقًا، وأن ما جاء به من الوحي عن الله صدق، وقـد أوقع له في صدور أعـدائه وقلوبهم رعبًا ومـهابة وخوفًا، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»(١) وهذا من التأييد والنصـر الذي آتاه الله عزَّ وجلَّ، وكان عدوه يخـافه وبينه وبينه مسيـرة شهر، وقيل كان إذا عـزم على غزو قومٍ أُرعبـوا قبل مجيـئه إليهم، ووروده عليهـم بشهر، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

بعض الأحاديث

الدالة على إخباره ﷺ بما وقع كما أخبر

ومن ذلك حـديث خبـاب بن الأرت حين جاء هـو وأمثـاله من المستـضعـفين يستنصرون النبي ﷺ، وهو مـتوسد رداءه في ظل الكعبة فيدعـو لهم لما هم فيه من العذاب والإهانة فجلس محـمرًا وجهه وقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليُتمَنَّ الله هذا الأمر ولكنكم تستعجلون»(٢)، وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت في المنام أني أُهاجر من مكة إلى أرض فيها نخل، فذهب وهلي(•) إلى أنها اليمامة أو هَجَر فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرا والله خير،

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٥)، ومسلم (٨١٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٣٠).

(•) ظني.

فإذا هم المؤمنون يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي آتانا بعد يوم بدر»[١].

ومن ذلك قصة أُبيّ بن خلف الذي كان يعلف حصانًا له، فإذا مر برسول الله ﷺ يقول: إني سأقتلك عليه فيقول له رسول الله ﷺ: **«بل أنا أقتلك إن شاء الله»**، فقتله يوم أحد، وفي الصحيح[٢] أنه ﷺ جعل يشير إلى مصارع القتلى يوم بدر، ويقول: هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان، فما حاد أحد منهم عن مكانه الذي أشار إليه رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله لذلك الرجل الذي كان لا يترك للمشركين شاذة ولا فاذة إلا أتبعها ففراها بسيفه، وذلك يوم خيبر، فقال الناس: ما أغنى أحد اليوم ما أغنى فلان[•] فقال: **«إنه من أهل النار»**، فقال بعض الناس: أنا صاحبه، فاتبعه فجرح فاستعجل الموت فوضع ذباب سيفه في صدره ثم تحامل عليه حتى أنفذه، فرجع ذلك الرجل فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: **«وما ذاك»**، فقال: إن الرجل الذي ذكرت آنفا كان من أمره كيت وكيت[٣].

ومن ذلك إخباره ﷺ عمه عن الصحيفة التي تعاقدت فيها بطون قريش، وتمالأوا على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا يؤوهم ولا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، فجاء أبو طالب إلى قريش، فقال: إن ابن أخي قد أخبرني بخبر عن صحيفتكم، بأن الله قد سلط عليها الأرضة فأكلتها إلا ما فيها من أسماء الله، (أو كما قال) فأحضروها فإن كان كما قال وإلا أسلمته إليكم، فأنزلوها ففتحوها فإذا الأمر كما أخبر به رسول الله ﷺ، فعند ذلك نقضوا حكمها ودخلت بنو هاشم وبنو المطلب مكة ورجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١٢/ ٧٠٤١).

(٢) رواه مسلم (٧٠٨٢)، والبخاري (٧/ ٣٩٦٠).

(•) قزمان. يقال: قزمان.

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٣).

ومن ذلك[١] إخباره عن فتح مدائن كسرى وقصور الشام وغيرها من البلاد يوم حفر الخندق، لما ضرب بيده الكريمة تلك الصخرة فبرقت من ضربة، ثم أخرى، ومن ذلك إخباره ﷺ عن ذلك الذراع أنه مسموم، فكان كما أخبر به، اعترف اليهود بذلك، ومات (من أكل معه) بشر بن البراء بن معرور، ومن ذلك ما ذكره عبد الرزاق، عن معمر أنه بلغه أن رسول الله ﷺ ذات يوم قال: **«اللهم نجِّ أصحاب السفينة»** ثم مكث ساعة ثم قال: **«قد استمرت»**، وكانت تلك السفينة قد أشرفت على الغرق وفيها الأشعريون الذين قدموا عليه وهو بخيبر.

ومن ذلك إخباره عن قبر أبي رغال حين مر عليه وهو ذاهب إلى الطائف، وأن معه غصنًا من ذهب فحفروه فوجدوه كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه[٢].

ومن ذلك قوله عليه السلام للأنصار، لما خطبهم تلك الخطبة مسليًا لهم عما كان وقع في نفوس بعضهم من الإيثار عليهم في القسمة لما تألف قلوب من تألف من سادات العرب ورءوس قريش وغيرهم، فقال: **«أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى رحالكم؟ وقال: إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»**[٣]، وقال: **«إن الناس يكثرون وتقل الأنصار»**، وقال لهم في الخطبة قبل هذه على الصفا: **«بل المحيا محياكم، والممات مماتكم»**، وقد وقع جميع ذلك كما أخبر به سواء بسواء.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**[٤].

وقد وقع مصداق ذلك بعده في أيام الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، استوثقت

---

(١) «السنن».

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخاري بمعناه (٧/ ٣٧٧٨).

(٣) رواه البخاري (٧/ ٣٧٩٢)، مسلم (٧١٨٩).

هذه الممالك فتحًا على أيدي المسلمين، وأنفقت أموال قيصر ملك الروم وكسرى ملك الفرس في سبيل الله.

وعن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟»، قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة (المرأة ما دامت في الهودج) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ما تخاف أحداً إلا الله عزَّوجلَّ»، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طئ الذين قد سعروا (أفسدوا) البلاد؟ «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى ابن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يخرج مِلء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقول له: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضلت عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم». قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة»، قال عدي: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، فلا تخاف إلا الله عزَّ وجلَّ وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ الرجل يخرج ملء كفه..»[(١)].

وقد ثبت في الحديث الصحيح[(٢)]، البشارة لعبد الله بن سلام أنه يموت على الإسلام ويكون من أهل الجنة، وقد مات رضي الله عنه على أكمل أحواله وأجملها وكان الناس يشهدون له بالجنة في حياته لإخبار الصادق عنه بأنه يموت على الإسلام وكذلك وقع.

وقد ثبت[(٣)] الإخبار عن العشرة بأنهم من أهل الجنة، بل ثبت[(٤)] أيضاً الإخبار عنه صلوات الله وسلامه عليه بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة وكانوا ألفا

(١) رواه البخاري (٣٣٢٨).
(٢) رواه البخاري (٣٥٢٩).
(٣) رواه أحمد (١٥٤٥).
(٤) رواه الترمذي (٣٧٩٥)، وقال «حسن صحيح».

وأربعمائـة، وقيل وخمسمـائة، ولم ينقل أن أحداً من هؤلاء ﷺ عاش إلا حـميداً ولا مات إلا على السداد والاستقامة والتوفيق، ولله الحمـد والمنة وهذا من أعلام النبوات ودلالات الرسالة.

الإخبار بغيوب ماضية ومستقبلة

عن جابر بن سمـرة قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إن فـلانا مات، فقال: «**لم يمت**»، فعاد الثانية، فـقال: إن فلانا مات، فقال: «**لم يمت**»، فعاد الثالثة، فقال: إن فلانا نحر نفسـه بمشقص عنده، فلم يصل عليه»(١)، وعن قيس بن أبي شهم قال: مرت بي جارية بالمدينة فأخذت بكشحها(•) قال: وأصبح رسول الله ﷺ يبايع الناس، قال: فأتيته فلم يبايعني، فقال: صاحب الجُبيذَة(•)؟ قال: قلت: والله لا أعود، قال: فبايعني»(٢).

وعن عاصم بن كُليب عن أبيه، عن رجل من الأنصار قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فرأيت رسـول الله ﷺ وهو على القبر يوصي الحـافر: «**أوسع من قِبَل رجليه، أوسع من قِبَل رأسه**»، فلما رجع استقبله داعي امرأة، فجاء وجيء بالطعام فوضع يده فيه ووضع القومُ أيديهم فأكلوا فنظر آباؤنا رسـول الله ﷺ يلوك لقمة في فيه، ثم قال: «**أجـد لحم شـاة أُخذت بغيـر إذن أهلهـا**»، قـال: فأرسلت المرأة يا رسـول الله إني أرسلت إلى البقيع يُشترى لي شاة فلم توجد فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة: أن أرسل بها إليَّ بثمنهـا فلم يوجد، فأرسلت إلى امرأته فأرسلت إليَّ بهـا. فقال رسول الله ﷺ: «**أطعميه الأسارى**»(٣).

وعن حذيفـة قال: «قام فيـنا رسول الله ﷺ مقامـًا ما ترك فيـه شيئًا إلى قـيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمـه، وجهله من جهله، وقد كنت أرى الشيء قد كنت نسيته فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه»(٤).

---

(١) رواه البيهقي.
(٢) رواه أحمد (٢٠١٤٧٣).
(•) بكشحها: ما بين الخاصرة إلى الضلع.
(•) الجبيذة: أي الجذب.
(٣) أبو داود (٢٨٩٤).
(٤) رواه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٧١٢٣).

وانظروا لفتنة النساء الآن وقارنوها بقول النبي ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**»[(١)].

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحما، فإذا رأيت رجلين يختصمان في موضع لبنة فاخرج منها**»[(٢)].

وقد فتحت ديار مصر على يدي عمرو بن العاص في سنة عشرين.

وعن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لايزال هذا الدين قائمًا ما كان اثنا عشر خليفة كلهم من قريش، ثم يخرج كذابون بين يدي الساعة وليفتحن عصابة من المسلمين كنز القصر الأبيض، قصر كسرى، وأنا فرطكم على الحوض**»[(٣)].

وعن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه قال: «**اقتدوا بالذين من بعدي، أبي بكر وعمر**»[(٤)].

وعن أنس قال: صعد رسول الله ﷺ أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل، فضربه رسول الله ﷺ برجله، وقال: «**اثبت، فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان**»[(٥)].

وهذا من دلائل النبوة، فإن هؤلاء كلهم أصابوا الشهادة واختص رسول الله ﷺ بأعلى مراتب الرسالة والنبوة، واختص أبو بكر بأعلى مقامات الصديقية، وثبت في «الصحيحين»[(٦)]، من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم رأيت**

---

(١) رواه مسلم (٦٨١١).
(٢) رواه مسلم (٦٣٧٥).
(٣) رواه مسلم (٣٣٩٧).
(٤) رواه ابن ماجه، والترمذ، وقال: حسن.
(٥) رواه البخاري (٧/ ٣٦٧٥).
(٦) «الصحيحين»، البخاري (١٢/ ٧٠٣٦).

كأنه وُضع في يدي سواران فقطعتهما فأوحى إليّ في المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة»

وقد جاء مسيلمة الكذاب مع قومه وجعل يقول: إن جعل لي محمدًا الأمر من بعده اتبعته، فوقف عليه رسول الله ﷺ وقال له: **«والله لو سألتني هذا العَسيب ما أعطتكه، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أُريت»**، وهكذا وقع، عقره الله وأهانه وكسره وغلبه يوم اليمامة، كما قُتل الأسود العنسي بصنعاء.

وثبت في (الصحيحين)[١]، عن عائشة في قصة مسارة النبي ﷺ ابنته فاطمة، وإخباره إياها بأن جبريل كان يعارضه القرآن في كل عام مرة، **«وأنه عارضني العام مرتين، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي»** فبكت ثم سارها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وأنها أول أهله لحوقًا به. وكان كما أخبر.

ومن ذلك ما رواه مسلم[٢]، عن عمر بن الخطاب في قصة أويس القرني وإخباره عليه السلام عنه بأنه خير التابعين، وأنه كان به برص فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضعا قدر الدرهم من جسده، وأنه بار بأمه لو أقسم على الله لأبره، وأمره لعمر بن الخطاب أن يستغفر له، وقد وجد هذا الرجل في زمان عمر بن الخطاب على الصفة والنعت الذي ذكره في الحديث سواء.

وأخبر أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببُصْرى»**[٣]، وقد ذكر أهل التاريخ وغيرهم من الناس وتواتر وقوع هذا في سنة أربع وخمسين وستمائة، حتى كتب الناس على ضوئها في الليل وكأن في بيت كل منهم مصباحا، ورأى الناس سناها من مكة شرفها الله.

---

(١) «الصحيحين»، البخاري (٦/ ٣٦٢٤).

(٢) رواه مسلم (٦٣٧٤).

(٣) رواه البخاري (١٣/ ٧١١٨).

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنفان من أهل النار لم أرهما بعد، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**»[(١)]، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وهذان «الصنفان» وهما الجلادون الذين يسمون بالرجالة، والجاندارية، كثيرون في زماننا هذا ومن قبله وقبل قبله بدهر، والنساء الكاسيات العاريات أي عليهم لبس لا يواري سوآتهن، بل هو زيادة في العورة وإبداء للزينة، مائلات في مشيهن مميلات غيرهن إليهن، قد عمَّ البلاء بهنَّ في زماننا هذا، ومن قبله أيضًا، وهذا من أكبر دلالات النبوة، إذ وقع الأمر في الخارج طبق ما أخبر به عليه السلام» ا.هـ.

لاشك أن الدلالة أوضح وأصرح في زماننا هذا، فالفتك بالأبرياء والعرى والخلاعة الآن قد وصلت لحد لا نظن له مثيلاً أو شبيهًا فيما مضى ومن دلائل النبوة أيضا قول النبي ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها**»[(٢)].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**».

وفي صحيح البخاري: «**وهم بالشام**»[(٣)]. قال ابن كثير: من دلائل النبوة، فإن أهل الحديث بالشام أكثر من سائر أقاليم الإسلام ولله الحمد ولاسيما بمدينة دمشق حماها الله وصانها. ا.هـ.

ومن جملة هؤلاء محدث ديار الشام، الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ.

---

(١) رواه مسلم (٧٠٤٩).

(٢) رواه أبو داود (٣٧٤٠).

(٣) سبق تخريجه.

ويرى النووي، أن الطائفة الظاهرة تشمل العلماء والعباد والمجاهدين. ولا تقتصر على أهل الحديث، وقد ذكرت بعض الغيوب والدلائل الصادقة وتركت الكثير لملال الطول، وفي ذلك كفاية وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

بشارات تضاف لرصيد الصدق

في صحف أشعيا في كلام طويل فيه معاتبة لبني إسرائيل وفيه: «فإني أبعث إليكم وإلى الأمم نبيًا أميا ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخّاب في الأسواق، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى في ضميره، والحكمة معقوله والوفاء طبيعته، والعدل سيرته، والحق شريعته والهدى ملته والإسلام دينه والقرآن كتابه أحمد اسمه، أهدى به من الضلالة وأرفع به بعد الخمالة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين القلوب المختلفة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس قرابينهم دماؤهم أناجيلهم في صدورهم رهبانا بالليل، ليوثا بالنهار». ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وفي **الفصل الخامس** من كلام شعياء: «يدوس الأمم كدوس البيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون قدامه».

وفي **الفصل السادس والعشرين** منه: «لتفرح أرض البادية العطش، ويعطي أحمد محاسن لبنان، ويرون جلال الله ببهجته».

وفي **السفر الأول**: أن ولد إسماعيل تكون يده على كل الأمم وكل الأمم تحت يده وبجميع مساكن إخوته يسكن».

وفي **السفر الرابع**: أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام، «أن قل لبني إسرائيل: سأقيم لهم نبيًا من أقاربهم مثلك يا موسى: وأجعل وحيي بفيه وإياه تتبعون».

وفي **السفر الخامس**: وهو سفر الميعاد، أن موسى عليه السلام خطب بني إسرائيل في آخر عمره.. وقال لهم: «واعلموا أن الله سيبعث لكم نبيا من أقاربكم مثل ما أرسلني إليكم يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر، ويحل لكم الطيبات

ويحرم عليكم الخبائث فمن عصاه؟ فله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة»، وهذا يتوافق مع صفة رسول الله ﷺ المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧).

وفي آخر **السفر الخامس** وهو آخر التوراة التي بأيديهم: «جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران وظهر من ربوات قدسه عن يمينه نور، وعن شماله نار، عليه تجتمع الشعوب».

أي جاء أمر الله وشرعه من طور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام عنده، وأشرق من ساعير وهي جبال بيت المقدس، المحلة التي كان بها عيسى بن مريم عليه السلام واستعلن أي ظهر وعلا أمره من جبال فاران وهي جبال الحجاز بلا خلاف ولم يكن ذلك إلا على لسان محمد ﷺ، والأماكن الثلاثة هي المذكورة أيضا في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (سورة التين: ١-٣). و«التين والزيتون»: المراد بها محلة بيت المقدس حيث كان عيسى عليه السلام، وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وهذا البلد الأمين وهو البلد الذي ابتعث منه محمداً، وقد ذكر سبحانه الفاضل من الاماكن أولاً ثم الأفضل منه ثم الأفضل منه.

وقد وردت بشارات صريحة بالرسول ﷺ، في إنجيل برنابا ومما ورد فيه: (ص١٦١): «قال الله اصبر يا محمد»، (ص٢٦١): «أن إسمه المبارك محمد..»، (ص١٦٢): «يا الله أرسل لنا رسولك، يا محمد تعالى سريعا لخلاص العالم»، والنصارى ينكرون هذه النصوص ويرفضونها، وقد كنت يوما في حوار مع أحد كبار النصارى واسمه يسه فذكرت له أن بشارة رسول الله ﷺ موجوده في إنجيل برنابا وغيره، فقال لي: برنابا كان زانيا، ولذلك طردته الكنيسة!!!.

وقال دانيال: يهدد اليهود، ويصف لهم أمة محمد ﷺ: «إن الله يظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبيًا، ومنزل عليهم كتابًا، ومملكتهم رقابكم يقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال قيدار (ابن إسماعيل) في جماعات الشعوب، معهم الملائكة على خيل بيضه، فيحيطون بكم وتكون عاقبتكم النار، نعوذ بالله من النار».

وقد صرح دانيال، باسم محمد ﷺ: «ستنزع في قسيك إغراقا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد»، وورد في قول الملك لدانيال: «وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط (أي بني إسرائيل) فلا يزالون ملعونين، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبي بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي وبشرها وأوحى إلى ذلك النبي وأعلمه الأسماء، وأُزينه بالتقوى وأجعل البر شعاره والتقوى ضميره والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته ، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أُسرى به إليَّ وأُرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأُدنيه وأُسلم عليه، وأُوحى إليه ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة حافظا لما استودع صادقًا فيما أخبر، يدعو إلى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، رءوف بمن والاه، رحيم بمن عاداه فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي ويخبرهم بما رأى من آياتي، فيكذبونه، ويؤذونه».

قال ابن تيمية: «وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى، يقرءونها ويقولون لم يظهر صاحبها بعد».

وفي إنجيل يوحنا، إصحاح (١٤) عدد (١٥): «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر، ليمكث معكم إلى الأبد»، وفي اللغات الأجنبية «فيعطيكم باركليتوس ليمكث معكم إلى الأبد»، والمعنى الحرفي لكلمة «باركليتوس» اليونانية هو أحمد، وهو من أسماء الرسول ﷺ.

وذكر صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) أنه جاء في (إنجيل لوقا، ٢: ١٤): «الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض إسلام وللناس أحمد»، ولكن المترجمين ترجموها في الإنجيل هكذا: «الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة».

وروى البخاري في صحيحه[١]، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو ابن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٥). وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب(•) في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبا غلفًا».

وروى الدارمي[٢] عن عطاء عن ابن سلام نحوه، وعن ابن كعب وهو من علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي ﷺ قال: «نجد مكتوبًا في التوراة محمد رسول الله عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، وأمته الحمَّادون يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل شرف، رعاة للشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها يتأزرون على أنصافهم، ويتوضئون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جو السماء، وصفهم في القتال، وصفهم في الصلاة سواء، لهم بالليل دوي كدوي النحل».

ومن تتبع سيجد ما لا يقل عن مائة وخمسون بشارة لرسول الله ﷺ موجودة في التوراة والإنجيل تصف هيئته ودعوته ومبعثه ومهجره.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ٨١-٨٢). قال

---

(١) البخاري (١٩٨١).

(•) الصخب: الصياح.

(٢) الدارمي (٧).

ابن عباس رضي الله عنهما: « **ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وليتبعنه**»[(١)]. فلا يسع أحداً سمع بنبوة رسول الله ﷺ إلا أن يصدق وأن يؤمن به، وذلك لقوله سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ (سورة الأنعام: ١١٤). وقال: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة البقرة ١٤٦). وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار**»[(٢)].

مرتبة الصديقية وأبو بكر الصديق

ذكر الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ مراتب الهداية وذلك أثناء تفسيره «لسورة الفاتحة»، فقال: «المرتبة الرابعة ـ مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «**إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر ابن الخطاب**».

قال: «وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في هذه الأمة بإن الشرطية، مع أنها أفضل الأمم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج اللهُ الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم، ولا صاحب كشف ولا منام فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها والمحدث هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يحدث به.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم (٣٧٩).

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عما منه.

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول فإن وافقه قلبه، وإلا رده فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث، قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات حدثني قلبي عن ربي، فصحيح أن قلبه حدثه، لكن عمن؟ عن شيطانه أو عن ربه؟ فإذا قال: حدثني قلبي عن ربي كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب، قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ولا تفوه به يومًا من الدهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك.

بل كتب كاتبه يومًا هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، فقال: لا امحه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صوابًا فمن الله وإن كان خطأ فمن عمر والله ورسوله منه برىء، وقال في الكلالة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان فهذا قول المحدث بشهادة الرسول وأنت ترى الإتحادي والحلولي والإباحي الشطاح والسماعي: مجاهر بالقحة والفدية، يقول: حدثني قلبي عن ربي، فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين واعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئًا واحدًا».

ثم تحدث ـ رحمه الله ـ عن مرتبة الإفهام إلى أن قال: «فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ومنشور الولاية النبوية وفيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عدَّ ألف بواحد». ا.هـ.

ونحن لو نظرنا لأبي بكر رضي الله عنه، لوجدناه أعظم هذه الأمة إيمانًا بعد رسول الله ﷺ فهو أول من أسلم من الرجال، ثم مواقفه العديدة التي تدل على عظيم يقينه وتصديقه، توضح بجلاء لماذا كان صدِّيق هذه الأمة.

ومن جملة ذلك موقفه يوم الحديبية، وكان عمر رضي الله عنه قد رأى أن في هذه المعاهدة مساسًا بكرامة هذه الأمة، فذهب إلى رسول الله ﷺ يقول: **ألسنا على الحق وعدونا**

على الباطل؟، قال النبي ﷺ: «بلى»، فقال عمر: فلم نعط الدنية في ديننا إذن؟ فأجابه رسول الله ﷺ: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري»، فقال عمر: أو ليس يا رسول الله كنت تحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به، فقال النبي ﷺ: «بلى.. فأخبرتك أنَّا نأتيه هذا العام؟»، فقال عمر: لا، فقال ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به» .

ويذهب عمر لأبي بكر ويكرر عليه هذه العبارات، فيقول له أبو بكر: «**أيها الرجل إنه لرسول الله وليس يعصي الله ربه وهو ناصره**»، فقال عمر: «**وأنا أعلم أنه رسول الله**»، فقال أبو بكر: «**فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق**»[(١)] .

ومن ذلك أيضا عندما جاءه المشركون، يقولون له: إن صاحبك يزعم أنه أسرى به إلى السماء، فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: «**إن كان قال فقد صدق، فو الله إني لأصدقه فيما هو أكبر من ذلك، أصدقه في خبر السماء**»[(٢)] .

ومن ذلك إنفاذه بعث أسامة وقتال المرتدين بعد موت رسول الله ﷺ على الرغم من معارضة عمر وبعض الصحابة له في بادئ الأمر، وكان الصواب معه رضي الله عنه، قال الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق، وبينما قال نبي الله موسى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ (سورة الشعراء: ٦٢). إلا أن رسول الله ﷺ أثبت هذه المعية له ولأبي بكر فقال: ﴿ **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ (سورة التوبة: ٤٠).

ولذلك ارتد أصحاب موسى بعده فرجع من عند ربه ووجدهم يعبدون العجل، بينما بقى أبو بكر مهتديًا موحدًا عالمًا جازمًا قائمًا بالأمر ولم يتطرق إليه اختلال، وقال عمر يوم السقيفة، ومن له مثل هذه الثلاث ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ (سورة التوبة: ٤٠). من هما؟ قال: ثم بسط يده فبايعه وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة.

---

(١) رواه مسلم (٤٥٥٢).

(٢) «السنن».

وروى البخاري، عن ابن عمر قال: «**كنا نخير بين الناس في زمن رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان**»[١]، وقال النبي ﷺ: «**هل أنتم تاركوا لي صاحبي إن الناس كلهم، قالوا: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**»[٢].

المؤمن صادق مصدق

الإيمان: هو لغة التصديق، **والصدق**: شعبة من شعبه، وهو خلق فاضل تمتنع به النفس من فعل ما لا يحسن ولا يجمل وكل شيء يدعو لامتثاله، فالكتاب والسنة والعقل والفطرة، قد حببت الصدق للعباد ولذلك فالمسلم صادق، يحب الصدق ويلتزمه ظاهراً وباطنًا في أقواله وفي أفعاله، إذ الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والجنة أسمى غايات المسلم وأقصى أمانيه، والكذب على العكس والنقيض، والمسلم عندما يلتزم الصدق، يفعل ذلك لأن الصدق من متممات إيمانه ومكملات إسلامه، فلا سبيل للمحافظة على كمال الإيمان إلا بالصدق.

هذا بالإضافة إلى الثمرات الطيبة التي يجنيها الصادقون كراحة الضمير وطمأنينة النفس، لقول الرسول ﷺ: «**الصدق طمأنينة**» (رواه الترمذي، وصححه)، والبركة في الكسب وزيادة الخير لقول الرسول ﷺ: «**البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بُورك لهما في بيعهما، وإن كتما مُحقت بركة بيعهما**»[٣].

والفوز بمنزلة الشهداء لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[٤].

كما أن الصدق، سبب النجاة من المكروه فقد حكى أن هاربًا لجأ إلى أحد الصالحين وقال له: اخفني عن طالبي، فقال له: نم هنا، وألقى عليه حزمة من

---

(١) البخاري (٧/ ٣٦٥٥).
(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٦٦١).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه مسلم، وسبق تخريجه.

خوص فلما جاء طالبوه وسألوا عنه قال لهم: ها هو ذا تحت الخوص، فظنوا أنه يسخر منهم فتركوه، ونجا ببركة صدق الرجل الصالح ولِمَ لا يكون صادقًا والنبي ﷺ هو أسوته وقدوته في الصدق وفي كل الفضائل.

روى أبو داود، عن عبد الله بن الحمساء، قال: بايعت رسول الله ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: **«يا فتى لقد شققت عليَّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنظرك»**.

والكذب، من شأنه أن يجرح عدالة المرء فقد روى البخاري ـ رحمه الله ـ أنه خرج يطلب الحديث من رجل فرآه قد هربت فرسه، وهو يشير إليها برداء كأن فيه شعيراً فجاءته فأخذها، فقال البخاري: أكان معك شعير؟ فقال الرجل: لا، ولكن أوهمتها، وقال البخاري: لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم فكيف بالذي يكذب على الناس.

حُكيَ أن الحجاج بن يوسف خطب يومًا، فأطال الخطبة، فقال أحد الحاضرين: الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك فأمر بحبسه فأتاه قومه وزعموا أن الرجل مجنون، فقال الحجاج: إن أقرَّ بالجنون خلعته من سجنه، فقال الرجل: لا يسوغ لي أن أجحد نعمة الله التي أنعم بها عليَّ وأثبت لنفسي صفة الجنون التي نزهني الله عنها، فلما رأى الحجاج صدقه خلى سبيله».

وينبغي حمل الناس على أحسن محاملهم وعدم اتهامهم في نواياهم فقد روى الإمام مسلم[1]، أن المسيح عيسى رأى رجلا يسرق، فقال له: سرقت، فقال الرجل: والله ما سرقت، فقال المسيح: آمنت بالله وكذبت عيني. وقد قال العلماء: من خدعنا بالله انخدعنا له.

---

(١) رواه مسلم (٦٠٢٢).

وكان الإمام مالك ـ رحمه الله ـ يقول: لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهًا، واحتمل الإيمان من وجه لحملته على الإيمان تحسينًا للظن بالمسلم وشأن المسلم أن يلتمس للناس الزلات فقد يجري الكذب على ألسنة الصالحين دون تعمد، وليس شأن من بدرت منه هفوة دون قصد كمن كان كذابًا.

وقد أطلق الصحابة وصف الكذب على من أخطأ كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كذب ابن عمر، لمسألة اجتهد فيها وأخطأ ولم يكن متعمدًا مخالفة الحق والصواب ولذلك فهو غير آثم، فوجب التفريق بين الكذب الذي يأثم به العبد وبين إطلاق الوصف على المخطىء كهذا الاستخدام الذي شاع عند الصحابة رضي الله عنهم، ولا يسعنا إلا أن نحسن الظن بالناس ونسيء الظن بأنفسنا والأصل في الناس البراءة لا الاتهام والتهمة تحتاج إلى بينة أوضح من شمس النهار، وإلا فأعراض الناس لابد من صيانتها والمحافظة عليها، ولذا نقول: أن المؤمن صادق مصدق.

الصداقة والصديق

احتفى الاسلام بمشاعر الصداقة النقية ورغب المؤمنين في إخلاصها لله، وإبقائها لوجهه، وجعل لها من جميل المثوبة ما هي له أهل، قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال، فقال: إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[1].

وقال ﷺ: «**إن رجلاً زار أخا له في الله، فأرصد الله له ملكًا فقال: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلانًا، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا، قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا،**

(١) رواه البخاري (١١/ ٦٤٧٩)

قال: فبنعمة لك عنده؟، قال: لا، قال: فيم؟، قال: أحبه في الله، قال: فإن الله أرسلني إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه، وقد أوجب لك الجنة»[(١)].

والصديق المصادق، هو بين الصداقة واشتقاقها من الصدق في الود والنصح والجمع أصدقاء كما قال صاحب المصباح المنير، روى رسول الله ﷺ عن الله عزَّ وجلَّ قال: «قد حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وقد حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وقد حقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي، وقد حقت محبتي للذين يتصادقون من أجلي»[(٢)].

والصداقة لها أعمق الأثر ومن ثم كان على الإنسان أن ينتقي إخوانه وأصدقاءَه، فلا يصادق كتابيًا ولا فاسقًا فاجرًا، قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم إلى من يخالل»[(٣)].

وفي الحديث: «مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه»[(٤)].

وقد حذر ربنا من شؤم الصديق الغبي المفتون، فصحبته سيئة قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (سورة الفرقان: ٢٧-٢٩). وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة الجاثية: ١٩-٢٠). وقال جل وعلا: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٦٧-٦٨). فالصديق ينبغي أن يكون ملازمًا للكتاب والسنة بعيدا عن الخرافة والبدعة، إذ المبتدع قد ينال صديقه من شؤم بدعته ولأن المبتدع وصاحب الهوى هجرتهما متعينة طالما أن في مخالطتهما مضرة ومفسدة.

---

(١) رواه مسلم (٦٤٢٨).
(٢) رواه أحمد (١٨٦٢١).
(٣) (أي يصادق)، رواه أحمد (٧٦٨٥)، (٨٠٦٥).
(٤) رواه أبو داود (٤١٩١).

أوصى رجل ابنه فقال: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك، إصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدَّق قولك، وإن حاولتما أمرًا أمرك، وإن تنازعتما شيئًا آثرك.

وعن أبي هريرة ﷺ: إذا أتاه رجل فقال إني أريد أن أواخيك في الله، قال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: فاذهب عني.

وقال بعض الصالحين: من سقطت كلفته، دامت ألفته، ومن خفت مؤونته دامت مودته وآية سقوط الكلفة الموجب للأنس، والمذهب للوحشة أن يفعل الأخ في بيت أخيه أربع خصال: أن يأكل في بيته، ويدخل الخلاء عنده، ويصلي وينام معه، فإذا فعل هذه فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة الموجبة للوحشة ووجد الأنس وتأكد الانبساط.

وقال البعض: أين مثل الأخ الصالح؟ إن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه ويتمتعون بما خلف، والأخ الصالح ينفرد بالحزن، مهتما مما قدم أخوه عليه، وما صار إليه، يدعو له في ظلمة الليل ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى، وينبغي على الصديق أن يكون وفيًا لصديقه حريصًا على إخوَّته.

قال أبو الدرداء ﷺ: إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى.

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: إذا أطاع صديقك عدوك، فقد اشتركا في عداوتك وأن يعلم أن الصداقة لا تنقطع بالموت، فقطعها محبط لأجرها، بل عليه أن ينقل المودة إلى أولاده ومن والاه من أصدقائه.

فقـد أكرم رسول الله ﷺ عـجوزاً دخلت عليـه فقيل له في ذلك، فـقال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين..**»[(١)].

ولابد من الانتبـاه إلى أن الصداقة والأخـوة الخاصة، لا تمنع من الأخوة العـامة وإعطاء كل ذي حق حقـه، وإلا فالجمعـة والجماعـات وتحمل أعباء الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.. يستلزم أمة توثقت فيها العلاقـات الخاصة والعامة إلى حد بعيد، وكل اعتزال عن الأمـة تضيع به الواجبات وتفـوت به المصالح فليس من دين الله في شيء أما لو اعتزل الإنسان الشر والفساد طالما لا يستطيع تغييره فلا حرج فيه.

وفي الحديث، وقد سُئل رسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟، قال: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**»، قيل: ثم من؟، قال: «**رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[(٣)].

والمؤمن، هين لين إلف مألوف، فاستعن بالله وكن كذلك.

---

(١) رواه الحاكم، وصححه.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٣)، ومسلم (٤٨٠٣).

(٣) رواه أحمد (٤٧٨٠)، وابن ماجه (٤٠٢٢).

إن تصدق الله يصدقك

الجزاء من جنس العمل، وربنا جل وعلا لا تضيع عنده مثاقيل الذر، لا يضيع سبحانه أجر المحسنين وقد جعل العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (سورة الأحزاب: ٢٣-٢٤). لما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ: «**قوموا بنا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**»، فقام عمرو بن الجموح رضي الله عنه، وهو أعرج، فقال: «**والله لأحفزنَّ عليها(•) في الجنة**»، فقاتل حتى قتل.

وأورد أهل السير، أن عمرو بن الجموح لم يشهد بدراً، وكان أعرج، فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى أُحد، منعه بنوه، وقالوا: قد عذرك الله، فأتى النبي ﷺ، فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك**»، ثم قال لبنيه: «**لا عليكم أن لا تمنعوه لعل الله عزَّوجلَّ يرزقه الشهادة، فخلوا عنه**»، قالت امرأته هند بنت عمرو بن حرام: كأني أنظر إليه موليا وقد أخذ درقته، وهو يقول: اللهم لا تردني إلى أهل حزبي، وهي منازل بني سلمة، قال أبو طلحة: فنظرت إلى عمرو حين انكشف المسلمون، ثم ثابوا وهو في الرعيل الأول لكأني أنظر إلى ظلع في رجله، يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة، ثم أنظر إلى ابنه خلاد يعدو في أثره حتى قتلا جميعا.

وعن أنس أن عمه أنس بن النضر غاب عن بدر، فقال: «غبت عن أول قتال قاتله النبي ﷺ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله ما أفعل، فلقي يوم أحد

(•) الحث والإعجال.

فهزُم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقى سعد بن معاذ، فقال: إلى أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد فمضى فَقُتل، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو بنانه وبه بضع وثمانون من بين طعنة وضربة ورمية بسهم»[١].

وعن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين في بدر، فدنا المشركون، فقال النبي ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»، قال عمير بن الحمام: بخ بخ، قال رسول الله ﷺ: «**ما حملك على قولك بخ بخ؟**»، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، قال: فأخرج تمرات من قرنه[•] فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل»، رضي الله عنه[٢].

ومن جملة هؤلاء الأفاضل، سعد بن خيثمة، الذي قال له أبوه خيثمة: إنه لابد لأحدنا أن يقيم، فآثرني بالخروج وأقم مع نسائك.

وذلك لما ندب رسول الله ﷺ الناس إلى غزوة بدر، فرفض سعد، وقال: لو كان غير الجنة آثرتك به إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما[••] فخرج سهم سعد، فقتل ببدر على نحو ما تمنى، فقد أصيب بضربة في وجهه رضي الله عنه، فاقتد بمن سبقك في الفضل واحرص على الصدق في القول والفعل تنل سعادة الدارين.

(١) روي في الصحيحين، البخاري (٧/ ٤٠٤٨).

(•) جعبة من الجلد.

(٢) رواه أحمد (١١٩٤٩)، ومسلم (٣٥٢٠).

(••) اقترعا.

انعكاس الصدق على ظاهر الإنسان ووجهه

عن زرارة بن أبي أوفى، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن أتى، فلما رأيت وجهه عرفت أنه غير وجه كذاب فسمعته، يقول: **«أيها الناس، أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح): وقد كان ﷺ خلقه وصورته من أحسن الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله..

وفي تفسيره قوله سبحانه: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (سورة النور: ٣٥).

قال الإمام ابن القيم: قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم، وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وإن كان سائر الخلق له منكر فإن كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا منهم من نوره كالشمس وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج وآخر يعطي نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٩).

ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهراً لا باطنًا، أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .ا.هـ.

قال ابن القيم، في الباب التاسع عشر من (روضة المحبين ونزهة المشتاقين): اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهراً وباطنًا.

فالجمال الباطن: هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة.

وهذا الجمال الباطن: هو محل نظر الله تعالى من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»، وهذا الجمال يزين الصورة الظاهرة، وإن لم تكن ذات جمال فيكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة، بحسب ما اكتسبت روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يعطي مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه، وهذا أمر مشهود بالعيان.

فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة، من أحلى الناس صورة وإن كان أسود أو غير جميل ولاسيما إذا رزق حظًا من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسنه، وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل، فقيل لها، في ذلك فقالت: إنها تحسن الوجه وأنا أحب أن يحسن وجهي.

ومما يدل على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر، أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه، وأما الجمال الظاهر فزينة، خص الله بها بعض الصور عن بعضه وهي من زيادة الخلق التي قال الله فيها: ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ (سورة فاطر:١)، قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة والقلوب المطبوعة على محبته كما هي مفطورة على استحسانه.

وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قالوا يا رسول الله: الرجل يحب أن تكون نعله حسنا وثوبه حسنا أفذلك من الكبر؟، فقال: «لا إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[1].

(فبطر الحق) حجده ودفعه بعد معرفته، و(غمط الناس) النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم...

والجمال الظاهر: من نعم الله أيضًا على عباده، يوجب الشكر وشكره التقوى والصيانة فكلما شكر مولاه على ما أولاه زاده الله جمالاً ومنحه كمالاً، وأما إن بذل الجمال في المعاصي عاد وحشة وشينًا، كما شوهد من عالم كثير في الدنيا قبل الآخرة فكل من لم يتق الله سبحانه وتعالى في حسنه وجماله انقلب قبحًا وشينا يشينه الله به بين الناس. ا.هـ.

وهكذا فأنت ترى التناسب الواضح والارتباط الوثيق بين الظاهر والباطن، وفي الحديث الصحيح: **«ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**، وكان الحسن ـ رحمه الله ـ يقول: فإنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين(•)؛ فإن ذل المعصية لا يفارق رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، وفي تفسيره قوله سبحانه: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ (سورة محمد: ٣٠).

قال العلماء: ما أسر عبد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وكانوا يقولون: إن العبد ليذنب بالليل فيصبح وعليه أثر مذلته.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩).

(•) البراذين: الخيل.

وقد كنت قرأت بحثًا أورده بعض المعاصرين، عن الارتباط بين ملامح الوجه وأخلاق وسلوك هذا الشخص، فهذا وجهه يدل على طبيعة الإجرام، وهذا وجهه يفيد؟ أن صاحبه خجول.. وهكذا، ولهذا فالصادق ترتسم ملامح صدقه على وجهه، وفي أقواله وأفعاله، بحيث لا تخفى على المشاهدين أو السامعين، ولذلك، قالوا: الكلمة إذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان، وإذا خرجت من القلب وصلت إلى القلب.

الصدق المنافي للكذب شرط للانتفاع بالشهادة

قولة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، هي الشهادة التي ندخل بها في الإسلام باتفاق العلماء، بمجرد النطق بها، ثم يُؤمر العبد بالتزام أحكام إسلامه ودينه، والتلفظ بهذه الكلمة يعصم الدم والمال، كما ورد بذلك نصوص الشريعة طالما أدى الإنسان حقوقها كالصلاة والزكاة، ولكي ينتفع بها في الآخرة فلابد من العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا، ولابد من اليقين المنافي للشك وقبول مقتضاها بالقلب والإقرار بها باللسان، كما لابد من الانقياد لما دلت عليه، والإخلاص وتصفية العمل بصالح النية عن شوائب الشرك.

ومحبة هذه الكلمة وما اقتضته ودلت عليه، ومحبة أهلها العاملين بها، ومن أعظم هذه الشروط الصدق فيها المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقًا من قلبه يواطىء قلبه لسانه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ١-٣). إلى آخر الآيات.

وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوها كذبًا: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٨-١٠).

وكما ذكر الله تعالى من شأنهم وأبدى وأعاد وكشف أستارهم وهتكها وأبدى فضائحهم في غير موضع من كتابه كالبقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة وسورة كاملة في شأنهم وغير ذلك.

وفي «الصحيحين»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ **«ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار»**[1] . . . فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقا من قلبه، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب.

وفيهما أيضًا من حديث أنس بن مالك، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما من قصة الأعرابي وهو ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر لما سأل رسول الله ﷺ عن شرائع الإسلام فأخبره قال هل عليَّ غيرها؟ قال: **«لا، إلا أن تطوع»**، قال: والله لا أزيد عليها ولا أنقص منها، فقال رسول الله ﷺ: **«أفلح إن صدق»**[2] . . وفي بعض الروايات: **«إن صدق ليدخلن الجنة»** . . . فاشترط في فلاحه ودخول الجنة أن يكون صادقًا.

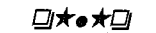

(١) في «الصحيحين»، البخاري (١/ ١٢٨).

(٢) رواه البخاري (١/ ٦٣)، ومسلم (١٠٢).

الإيمان بأسماء الله وصفاته تبعث على الصدق

ورد اسم الصادق ضمن أسماء الله الحسنى، وذلك في بعض الروايات التي أخرجها بن أبي الدنيا، والطبراني كلاهما في (الدعاء) وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، عن أبي هريرة، وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر - رحمه الله - قال: سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة، فقال: هي في القرآن(•) إلى أن قال، وفي آل عمران: يا وهاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل.

وقد أخبر الرسول ﷺ أن أسماء الله تعالى المنزلة، والتي يمكننا معرفتها وإحصاؤها تسعة وتسعون اسمًا، ولم يرد حديث صحيح يسرد هذه الأسماء سردًا لا يترك مجالاً للخلاف في تحديدها، بل وردت هذه الأسماء متفرقة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ تذكر الآية الاسم والأسمين أو أكثر أو تختم الآية بواحدة أو أكثر، وقد تسرد الآيات جملة من هذه الأسماء، وقد اتفق العلماء في عد جملة كبيرة من أسماء الله تعالى، واختلفوا في جملة قليلة، فبعضهم عدها من أسمائه تعالى، ومنهم من نازع في ذلك.

وقد عدها الحافظ ابن حجر ولم يذكر منها اسم الصادق بينما ذكره غيره، وقد وصف ربنا نفسه بصفة الصدق في أكثر من موضع، فقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ (سورة النساء: ١٢٢)، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (سورة النساء: ٨٧)، ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ (سورة آل عمران: ٩٥).

واعلم أن أسماء الله عزَّ وجلَّ، ليست بمنحصرة في التسعة والتسعين المذكورة في حديث أبي هريرة، ولا فيما استخرجه العلماء من القرآن، بل ولا فيما علمته الرسل

(•) فعدها مرتبة على سور القرآن.

والملائكة وجميع المخلوقين، لحديث ابن مسعود عند أحمد وغيره، ونحن نؤمن بهذه الأسماء على أساس ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فكما أن ذاته سبحانه لا تشابه ذوات المخلوقين.

فكذلك صفاته جلَّ وعلا لا تشابه صفات المخلوقين، وقال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»(٢). واختلف العلماء في معنى قوله ﷺ من أحصاها، فقال البخاري وغيره من المحققين معناه حفظها وأن إحدى الروايتين مفسدة للأخرى.

وقال الخطاب: يحتمل وجوهًا، **أحدها**: أن يعدها حتى يستوفيها، بمعنى أن لا يقتصر على بعضها فيدعو الله بها كلها ويثني عليه بجميعها فيستوجب الموعود عليها من الثواب.

وثانيها: المراد بالإحصاء الإطاقة، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها فيلزم نفسه بموجبها، فإذا قال الرزاق وثق بالرزق وكذا سائر الأسماء.

ثالثها: المراد بها الإحاطة بجميع معانيها، وقيل أحصاها عمل بها فإذا قال الحكيم سلم لجميع أوامره وأقداره وأنها جميعها على مقتضى الحكمة، وإذا قال القدوس استحضر كونه مقدسا منزها عن جميع النقائض واختاره أبو الوفاء بن عقيل.

وقال ابن بطال: طريق العمل بها أن ما كان يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها يعنى فيما يقوم به وما كان يختص به نفسه كالجبار والعظيم فعلى العبد الإقرار بها والخضوع لها وعدم التحلي بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة. ا. هـ.

---

(١) في «الصحيحين»، البخاري (١٣/ ٧٣٩٢).

قال الشيخ حافظ حكمي صاحب كتاب (معارج القبول): والظاهر أن معنى حفظها وإحصائها هو معرفتها والقيام بعبوديتها كما أن القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به، بل جاء في المُرَّاق من الدين أنهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم. ا. هـ.

والأولى إذا دعا العبد ربه، أن يستخدم من الأسماء والصفات ما يتعلق بحاجته كأن يقول، يا رحيم ارحمني ويا غفور اغفر لي، وكذلك الأمر إذا سأل الصدق في القول والفعل، كما أن المحبة الحقيقية لله جل وعلا توجب على العبد أن يتخلق بأخلاق الصادقين وأن يتصف بصفة الصدق لأن الله سبحانه موصوف بذلك.

تربية الأولاد على الصدق

اعلم أن الصدق في تربية الأولاد، من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفسية وهو قابل لكل ما ينقش فيه، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عوِّد الخير وعلمه، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل مُعلم له ومؤدب، وإن عوِّد الشر وأهمل شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه، وعلى الإنسان وزره.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (سورة التحريم:٦)، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء، فإن الصبي إذا أُهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب ردىء الأخلاق كذابًا حسودًا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكيد.

وإنما يُحفظ عن جميع ذلك: بالتأديب، وتَعلُّمِ القرآن، والحديث، وحكايات الأبرار وأحوالهم، لينغرس في نفسه حب الصالحين، ثم إذا ظهر في الصبى خلق

جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويُجازى بما يفرح به ويمدح، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة، فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره وخصوصًا إذا ستر الصبي هذا الفعل واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك ربما يعطيه جرأة وجسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فإن عاد ثانيا للخلق الذميم، فينبغي أن يُعَاقَبَ سرا ويعظم الأمر فيه، ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ويُطلع عليك فتفتضح بين الناس، ويخوف من اطلاع الله عليه في السر والعلن ولا يكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقح الكلام من قلبه وليكن الأب حافظا هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح.

ولابد من الحذر من ظهور الأم بمظهر اللين دائما، والأب بمظهر القسوة والغلظة دائما، فهذا سينفر الابن من أبيه ويجعله يلتجئ إلى أمه دائما لنيل مطلبوه، وينبغي أن يُمنع من كل ما يفعله خفية فإنه لا يُخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح.

وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء، ولابد من السماح له بشيء من اللعب، وينبغي أن يُعلَّم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنًا من قريب وأجنبي وأن ينظر إليهم بعين الاحترام، وأن يترك اللعب بين أيديهم وإذا بلغ سن التمييز فلابد من تعاهده بالطهارة والصلاة والقيام، طالما كان مطيقًا ويُعلَّم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويُخوف من السرقة، وأكل الحرام، ومن الخيانة، والكذب، والفحش، ولا يخفى عليك أن حفظ الأبناء، قد يكون بصلاح الآباء، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾ (سورة الكهف: ٨٢). وكان سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ يطيل في صلاته ويقول لابنه والله إني لأطيل في صلاتي رجاء أن أحفظ فيك ويتلو قوله سبحانه: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾، وفي الحديث: «**احفظ الله يحفظك**».

ولا شك أن التربية بالقدوة والسلوك هي من أبلغ صور التربية، وكذلك حسن اختيار الزوجة له دور كبير في استقامة الأولاد:

فـالأم مـدرسـة إذا أعـددتهـا ■●■ أعـددت شـعـبًـا طيب الأعـراق

وفي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، وفي رواية: «**كل مولود يولد على الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويشركانه**»، قيل، فمن هلك قبل ذلك؟ قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»

وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (سورة التحريم: ٦). وقال علي ﷺ: «**علموهم وأدبوهم**»، وقال النبي ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها**» (الحديث).

ولابد من الاهتمام بالابن الكبير بصفة خاصة، إذ هو قدوة إخوته الصغار، والحرص على الاكثار من الدعاء، فإن العبد إذا ألهم الدعاء فإن الإجابة معه، ومن دعاء الصالحين: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (سورة الفرقان: ٧٤). وفي دعاء زكريا عليه السلام: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٥-٦). فعلى المسلم أن يدعو الله أن يرزقه الولد الصالح الذي ينفعه في حياته وبعد مماته والله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (سورة البقرة: ١٨٦).

فالولد الصالح هو خير كنز يتركه المسلم من بعده، فهو نافع لأبويه في حياتهما وبعد موتهما ولذلك يقول النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث! صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1].

ومن الأسباب النافعة في صلاح النشأة واستقامة الحال، التزام السنن والأذكار مثل أذكار البناء، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا تزوج أحدكم امرأة، أو اشترى خادمًا، فليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جبلتها عليه، وإذا اشترى بعيرًا، فليأخذ بذروة سنامه، وليقل مثل ذلك**»[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني.

ومن ذلك أذكار الجماع، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«لو أنَّ أحدكم إذا أتى أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فَقُضي بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبداً»**(١).

ويستحب التأذين في أذن المولود عند ولادته، لما رواه أبو رافع رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ أذن في أُذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة رضي الله عنها بالصلاة..(٢)، والأذان فيه كلمة التوحيد وهو شعار الإسلام، وله أثره في قلب المولود، ثم هو سبب لهروب الشيطان، وكان رسول الله ﷺ يؤتى بالصبيان، فيدعو لهم بالبركة ويحنكهم(•)..(٣).

والأسماء لها أثرها في سلوكيات صاحبها، وفي الحديث: **«إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم»**(٤).

والغلام مرتهن بعقيقته، يُذبح عنه يوم سابعه ويماط(•) عنه الأذى ففي الحديث: **«مع الغلام عقيقة، فأهريقوا عنه دماً، وأميطوا عنه الأذى»**(٥)، وقد استحب سلفنا الصالح الفتح على الصبي بكلمة الحمد، حتى يكون هذا هو أول ما ينطق به.

ولابد من الحيطة والحذر من وسائل الإعلام، كالإذاعة والتليفزيون، ومراجعة المواد الدراسية وضبطها بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، هذا إذا أردنا أن تنشأ الأجيال على الصدق، بعيداً عن الزعامات الزائفة والنِّحل المارقة، والخرافات والخزعبلات والأساطير الكاذبة.

---

(١) متفق عليه، البخاري (١١/ ٦٣٨٨).
(٢) رواه الترمذي (١٤٣٦).
(٣) رواه أبو داود (٤٤٤٢)، بإسناد صحيح كما قال الألباني.
(٤) رواه أبو داود (٤٢٩٧).
(•) التحنيك: عبارة عن مضغ التمر، ممن يتوسم فيه الصلاح، ودَلْكُ حنكِ المولود بها، وقيل: هو خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام تبركًا به.
(•) يزال.
(٥) رواه البخاري (٩/ ٥٤٧٢).

مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية

التفسير فرع التصحيح كما يقرر العلماء، فمرحلة الإثبات مرحلة سابقة على مرحلة تفسير الحدث وتعليله، وقد أدى الاعتماد على المستشرقين والملحدين والمارقين، ومَنْ لا نظر عنده إلى تشويه التاريخ الاسلامي وتضييع الحق والحقيقة، وإذا كان فساد الانتهاء من فساد الابتداء والعبد إذا فسدت بدايته فسدت نهايته، وإذا فسدت نهايته فربما هلك، ومعظم النار من مستصغر الشرر، وكل مقدمة لها نتيجة وكل عقيدة لها تأثير، فهذا كله يدعو إلى التثبت والحيطة في القبول والرفض، وإلا كان الإنسان كحاطب بليل يوشك أن يحمل حيةً تلدغه، وقد تعلمنا من دين الله كيف نفرق بين الصحيح والضعيف ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، كما قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ.

ولذلك فالإسناد من الدين، وهذا مما تتميز به هذه الأمة على غيرها، فلا إسناد متصل عند أهل الكتاب، والإسناد الوحيد المتصل عند النصارى في تحريم الطلاق في سنده كذاب، أي أنه لا حجية فيه، فالحجة فيما صح وثبت.

والحديث الصحيح: هو رواية العدل الضبط عن مثله إلى منتهاه، من غير شذوذ ولا علة. **والحسن**: هو رواية عدل خفيف الضبط عن مثله إلى منتهاه، من غير شذوذ، ولا علة. **والضعيف**: هو ما لم تتوافر فيه شروط الصحة.

ومن عظيم رحمة الله بهذه الأمة أن حفظ لها دينها، كما حفظ لها من يقوم به، يقول تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (سورة الحجر:٩). ولما قيل لابن المبارك: ما بال الأحاديث الموضوعة؟ قال: تعيش لها الجهابذة، ويحمل هذا العلم من كل خلف عدوله وهم الذين ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

يقول صاحب كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامي): لقد اعتنى علماء السنة بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات، واتبعوا منهجًا دقيقًا في نقدها، وينبغي للمؤرخ المسلم أن يطلع على ذلك ويفيد منه في دراساته التاريخية، والمصادر المهمة في هذا الشأن هي كتب مصطلح الحديث، أو أصول علم الحديث وأسس هذا العلم موجودة في الكتاب العزيز في مثل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (سورة الحجرات:٦).

وفي السنة المطهرة في مثل قوله ﷺ: **«نضَّر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع»**[(١)].

وكان الخلفاء الراشدون أول من سن للمحدثين التثبت في الرواية، واحتاطوا في قبول الأخبار فقد جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لكِ في كتاب الله شيئا وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لكِ شيئا ثم سأل الناس فقام المغيرة، فقال: حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال له: هل معك أحد فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها، وكذا رويَ عن عمر بن الخطاب موقف مشابه مع أبي موسى الأشعري.

وبناء على هذا ظهر علم نقد الأخبار والسؤال عن الرجال الرواة، فدونت أخبارهم ورحلاتهم وسني ولادتهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد.

وظهر كذلك علم الجرح والتعديل وهو الكلام في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره، كما دونوا علم علل الأحاديث سواء علل الإسناد أو علل المتون، وقد دون

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨١)، وقال: حسن صحيح.

العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خُصصت لهذا الشأن مثل كتاب: (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي)، للقاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠هـ. وكتاب (معرفة علوم الحديث)، لأبي عبد الله الحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ. و(الكفاية في علم الرواية)، للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ. و(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، للبغدادي أيضًا، وكتاب (الألماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع)، للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤هـ، و(علوم الحديث)، لابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ، وقد اشتهر باسم (مقدمة ابن الصلاح)، فهذه الكتب تبين طرق نقد الأخبار وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض.

كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا الميدان، من أمثال علي بن المديني، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وأبي حاتم الرازي، وأبي زرعة، حيث تكلموا في الرجال وفي نقد المتون للأحاديث وبيان عللها، ودونوا ذلك في مؤلفات خُصصت لهذا الشأن.

فكتب البخاري ثلاثة كتب هي: (التاريخ الكبير)، و(التاريخ الأوسط)، و(التاريخ الصغير)، وابن أبي حاتم دوّن كلام أبيه، وأبي زرعة في كتاب سماه: (الجرح والتعديل)، وابن معين له كتاب دوّنه تلاميذه باسم: (تاريخ ابن معين)، وكذلك ابن حنبل مرويٌ عنه: (كتاب العلل)، وأيضًا علي ابن المديني له كتاب في (علل الحديث)، وقد كتب كل من خليفة بن خياط ومحمد بن سعد كتابا في (الطبقات)، كما كتب ابن حيان كتابًا في (الثقات)، وكتابًا في (المجروحين) من المحدثين، وأيضًا كتب الخطيب البغدادي كتابًا جامعًا في أسماء العلماء والرواة الذين نشأوا في بغداد، أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية، كما كتب ابن عساكر كتابًا مماثلاً سماه (تاريخ دمشق).

وهناك كتب تخصصت في الترجمة للرواة الذين وردت أسماؤهم في الكتب الستة مثل، (الكمال في أسماء الرجال)، لعبد الغني المقدسي، و(تهذيبه) للحافظ المزي، و(تذهيب التهذيب) للحافظ الذهبي، و(تهذيب التهذيب) للحافظ ابن حجر.

وقد خُصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة، من أكثرها تداولاً كتاب (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) للذهبي، وكتاب (لسان الميزان) لابن حجر العسقلاني، فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكره لأننا لم نقصد الاستقصاء اللازمة للمؤرخ والمعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها ومعرفة صحيحها من سقيمها.

أما كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة، سواء كانت مصادر أولية مثل (السيرة النبوية) لابن إسحاق، و(مغازي) الواقدي، و(فتوح البلدان) للبلاذري، و(فتوح الأمم) لأبي إسماعيل الأزدي، (وفتوح مصر) لابن عبد الحكم، وكتاب (تاريخ خليفة بن خياط)، و(الأخبار الطوال) للدينوري، و(تاريخ الأمم والرسل) لابن جرير الطبري، و(جمهرة النسب) للكلبي، و(نسب قريش) لمصعب الزبيري.

أو كانت مصادر ثانوية، فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف، فهي مصادر في المعلومات التاريخية وليست مصادر في نقد الأخبار.

قواعد هامة في التحديث

القرآن نُقل لهذه الأمة نقلاً متواترًا، حفظته السطور والصدور، أن تضل إحداهما فَتُذَكِّر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بقراءة قارئ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما نقل إلينا نقلاً متواترًا من القرَّاء.

وقد تكفل سبحانه بحفظ كتابه، فقال: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (سورة الحجر:٩). **والمتواتر**: هو أعلى درجات الصحة والثبوت، وقد علمنا كيف تضافرت الهمم على كتابة الآيات المنزلة، وعلى تلاوته وحفظه والقيام به في هذه الأمة جيلاً بعد جيل، هذه العناية التي لم ينالها كتاب من الكتب التي أُنزلت من قبل ولذلك لا نسلم لكل ما ورد في الكتب السابقة على القرآن فبينما حرفت التوراة واستُبدلت بالتلمود عند اليهود، وغُيِّر وبُدِّل الإنجيل عند النصارى واستُبدل باثنى عشر إنجيلاً يضرب بعضها بعضا ثم اقتصروا على ستة أناجيل منها في عهد قسطنطين.

نجد أن القرآن قد جمع على حرف واحد هو حرف قريش، والقراءات التي يقرأ بها هي في هذا الحرف، والرسم الموجود هو الرسم العثماني(•)، وأن هذه الأمة لم تختلف في كتابها كما اختلفت اليهود والنصارى من قبل، فلله الحمد والمنة، وذلك لأن كل نبي كان يُبعث لقومه خاصة وبعث رسول الله ﷺ للناس كافة للإنس والجن والعربي والعجمي والأحمر والأسود، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا يتطلب حفظ الرسالة بل ومن يقوم بها.

ومن المعلوم أيضًا أن النبي ﷺ صادق مصدوق، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، والسنة لها شأن مع القرآن، فهي تخصص العام وتقيد المطلق، وتُفصَّل المجمل وقد تأتي بأحكام غير موجودة في القرآن، يقول تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ**

(•) نسبة لعثمان بن عفان.

لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (سورة النحل: ٤٤). وقال سبحانه: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (سورة الحشر: ٧). ولذلك لا بد من الرجوع للكتاب والسّنة.

وصلاح الحال في الدنيا والآخرة لا يتم إلا بذلك، ومن تمسك بأحدهما ولم يتمسك بالآخر، هو في الحقيقة لم يتمسك بشيء كما قال العلماء، ثم الأخبار المنسوبة لرسول الله ﷺ تتفاوت فيما بينها صحة وضعفًا.

قال النووي ـ رحمه الله ـ : الصحيح أقسام: أعلاها ما اتفق عليه البخاري ومسلم، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما كان على شرطهما، وإن لم يخرجاه ثم على شرط البخاري، ثم على شرط مسلم، ثم ما صححه غيرهما من الأئمة، فهذه سبعة أقسام، وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: اتفق أهل العلم بالحديث على أن أصح الأحاديث، ما رواه أهل المدينة، ثم أهل البصرة، ثم أهل الشام، وقال الخطيب: أصح طرق السنن ما يرويه أهل الحرمين، مكة والمدينة، فإن التدليس عنهم قليل، والكذب ووضع الحديث عندهم عزيز ولأهل اليمن روايات جيدة وطرق صحيحة إلا أنها قليلة ومرجعها إلى أهل الحجاز أيضا، ولأهل البصرة من السنن الثابتة بالأسانيد الواضحة، ما ليس لغيرهم مع إكثارهم، والكوفيون مثلهم في الكثرة، غير أن روايتهم كثيرة الدَّغل قليلة السلامة من العلل.

وحديث الشاميين أكثره مراسيل ومقاطيع، وما اتصل منه مما أسنده الثقات، فإنه صالح والغالب عليه ما يتعلق بالمواعظ، وقد تكلم العلماء على أصح الأسانيد وأطلقوا على بعضها اسم (سلاسل الذهب) كمالك عن نافع عن ابن عمر، وكإبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود، ويلتحق بهذا التفاضل ما اتفق الشيخان على تخريجه بالنسبة إلى ما انفرد به أحدهما، وما انفرد به البخاري بالنسبة إلى ما انفرد به مسلم لاتفاق العلماء بعدهما على تلقي كتابيهما بالقبول كذا في (شرح النخبة)، و(التدريب)، وأول من صنف في الصحيح الإمام مالك ولكنه أدخل في الموطأ المرسل

والمنقطع والبلاغات، أما أول مصنَّف في الصحيح المجرّد، «صحيح البخاري»، ولم يستوعب الصحيح في مصنف أصلا لقول البخاري: أحفظ مئة ألف حديث من الصحيح ومئتي ألف من غيره.

قال النووي ـ رحمه الله ـ : الصواب أنه لم يفت الأصول الخمسة من الصحيح إلا اليسير أعني الصحيحين وسنن أبي داود والترمذي والنسائي.. ويأتي الحديث الحسن بعد الحديث الصحيح في المرتبة، يقول ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ : الحسن لذاته أن يشتهر رواته بالصدق، ولم يصلوا في الحفظ رتبة رجال الصحيح، والحسن لغيره، أن يكون في الإسناد مستور لم تتحقق أهليته غيُر مغفَّل ولا كثير الخطأ في روايته، ولا متهم بتعمد الكذب فيها ولا ينسب إلى مفسِّق آخر، واعتضد بمتابع أو شاهد فأصله ضعيف وإنما طرأ عليه الحسن بالعاضد الذي عضده، فاحتمل لوجود العاضد ولولاه لاستمرت صفة الضعف فيه ولاستمر على عدم الاحتجاج به.

وفي معنى قول الترمذي: «حسن صحيح»، في وصفه لبعض الأحاديث، قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ وشبه ذلك قولهم في الراوي صدوق فقط، وصدوق ضابط، فإن الأول قاصر عن درجة رجال الصحيح والثاني أن الجمع بينهما لا يضر ولا يُشكِل وكذلك الجمع بين الصحة والحسن[1]. ا.هـ.

والحديث الضعيف، ما لم يوجد فيه شروط الصحة ولا شروط الحسن، وأنواعه كثيرة منها: الموضوع والمقلوب والشاذ والمنكر والمعلل والمضطرب وغير ذلك، والضعيف يتفاوت ضعفه بحسب شدة ضعف رواته وخفته، والموضوع هو الكذب المختلق المصنوع، أي كذب الراوي في الحديث النبوي ،بأن يروى عنه ﷺ ما لم يقله متعمداً لذلك.

---

(١) تدريب الراوي (١/ ١٦٤).

وقد اتفق العلماء على أنه تحرم روايته مع العلم بوضعه، سواء كان في الأحكام، أو القصص، أو الترغيب والترهيب ونحوها إلا مبينًا وضعه لحديث مسلم عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حدَّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين»**[(١)]، روى الكذابين على صيغة التثنيه والكاذبين بالجمع، قال ابن الحصار: قد يعلم الفقيه صحة الحديث، إذا لم يكن في سنده كذاب بموافقة آية من كتاب الله، أو بعض أصول الشريعة فيحمله ذلك على قبوله والعمل به.

ثم اعلم أن العلماء يقسمون الحديث إلى آحاد ومتواتر، والآحاد هو ما لم يبلغ درجة الاستشهاد، هو التواتر الذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع يلزم العمل بها في العقائد والأحكام، وأن المتواتر ما نقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة بأن يكونوا جمعًا لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أوله إلى آخره، ولذا كان مفيدًا للعلم الضروري وهو الذي يضطر إليه الإنسان بحيث لا يمكنه دفعه، ويجب العمل به من غير بحث عن رجاله ولا يعتبر فيه عدد معين في الأصح، ثم المتواتر قسمان:

لفظي: وهو ما تواتر لفظه، **ومعنوي**: وهو ما تواتر القدر المشترك فيه.

ومن أمثلة الأول: حديث **«من كذب عليَّ متعمدًا»**... وحديث: الحوض، والمسح على الخفين، وللثاني أمثلة منها: أحاديث رفع اليدين في الدعاء.

❑★•★❑

(١) مسلم (١).

معرفة شروط المؤرخ المقبول

التاريخ الإسلامي إذا قورن بغيره من تواريخ الأمم، نجده أنه قد حُفظ وخدم ودُوِّن في وثائق وتناقله الخلف عن السلف، وغالب أخباره وحوادثه الرئيسية قد وصلتنا بالاستفاضة والتواتر وبالروايات المشهورة، ولا يقع الخلاف ويحتاج الأمر إلى التدقيق إلا في تفاصيل الحوادث.

وهذا الوضوح التاريخي لا يوجد في تاريخ أمة من الأمم، كما هو في التاريخ الإسلامي، كما قال محمد بن صامل العلياني صاحب كتاب، (منهج كتابة التاريخ الإسلامي)، وقد ذكر أن المؤرخ المقبول الرواية، يشترط له مجموعة من الصفات والشروط يجعلها بعضهم كشروط رواي الحديث النبوي (العقل والضبط والإسلام والعدالة)، غير أن الأمر فيه تفصيل وذلك بحسب المروى وأهميته التشريعية، فإذا كان المروى متعلقا بالنبي ﷺ أو بأحد من الصحابة ﷺ فإنه يجب التدقيق في رواته والاعتناء بنقدهم ويلحق بهذا ما إذا كان الأمر متعلقا بثلب أحد من العلماء والأئمة ثابتي العدالة لأن كل من ثبتت عدالته لا يقبل جرحه حتى يتبين ذلك عليه بأمر لا يحتمل غير جرحه.

أما إذا كان الخبر المروى لا يتعلق بشيء من ذلك، فإنه وإن كان الواجب التثبت في الكل إلا أنه يتساهل فيه ولهذا قال الخطيب البغدادي، باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجاوز في فضائل الأعمال، ثم روى بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال، وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد.

ولا يعني هذا التساهل أنهم يروون عن الكذابين وساقطي العدالة، لأن ساقط العدالة لا يحمل عنه أصلا، إنما يقصدون ضعف الضبط في الراوي، مثل الغفلة وكثرة الغلط والتغير والاختلاط ونحو ذلك، أو عدم اتصال السند كإرسال أو انقطاع.

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية في ثبوتها وعدالة رواتها واتصال اسانيدها، لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا في القليل النادر مثل ما جاء مرويا عن طريق علماء الحديث، كأخبار السيرة النبوية وخلافة الراشدين، وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السنة، وإنما غالبها محمول عن الإخباريين وبأسانيد منقطعة ويكثر فيها المجاهيل، بل إن بعضها يرد بدون إسناد أو حتى تبيين للمصادر التي حمل عنها المؤرخ، ومن أجل هذا فإنه قد يكون من العسير تطبيق المنهج النقدي عند علماء الحديث النبوي بكل خطواته على كل الأخبار التاريخية.

ولذا فرق جمهور العلماء بين الشروط المطلوبة في المؤرخ، لكي تقبل روايته وبين الأمور المشترطة في رواي الحديث النبوي، فتساهلوا في الأول وتشددوا في الثاني وذلك للأهمية التشريعية لما يرويه، فالسبب في التفريق؟ راجع إلى موضوع الرواية وعليه فإنه يمكن القول بأن الرواية التاريخية، إذا كانت تتعلق بموضوع شرعي كتحليل أو تحريم أو ما يدخل في باب سب المسلم وتنقصه أو تدليس حاله على الناس، فإنه لابد من التثبت من رواتها، ومعرفة نقلتها، ولا يؤخذ في هذا الباب إلا عن العدول الضابطين الذين سلمت مروياتهم من المعارضة.

أما إذا كانت الرواية التاريخية، لا يتعلق بها إثبات حكم شرعي أو نفيه، كما هو الغالب على الروايات التاريخية، فإن الأمر عندئذ يختلف، ويقبل في هذا الباب من الروايات الضعيفة ما لا يقبل في سابقه، لا سيما وقد قال بعض الفقهاء بجواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب.ا.هـ.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى خطورة الطعن كذبا في صحابة النبي ﷺ، رجاء إبعاد الأمة عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، فهم خيار أولياء الله المتقين، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يصفهم بقوله: «**كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً**»، وقال أبو أيوب السختياني: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من صحابة رسول الله ﷺ، فاعلم أنهم أرادوا أن يجرحوا شهودنا ليعطلوا العمل بالكتاب، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة.

فالصحابة هم نقلة الكتاب والسنة، ولك أن تتخيل ما الذي يمكن أن يترتب عندما يكون الناقل مطعونًا فيه، ولذلك لا نستغرب عندما تشتد وطأة الملاحدة والزنادقة والرافضة في هذا الاتجاه، والقراءة العابرة السريعة في كتب التاريخ التي تدرس بالمراحل الدراسية المختلفة، تدلك على مدى التشويه والدس الذي تم على أيدي هؤلاء، فقد صوروا الصحابة بهيئة من يتنازع للوصول لكراسي الحكم مستخدمين في ذلك أساليب الغش والخداع!!.

وُصِفَ عمرو بن العاص بصورة الداهية، الذي يستخدم دهاءه لتثبيت معاوية وخلع علي، كما يخلع الخاتم من أصبعه، وكيف رفع البعض الرماح على الأسنة على سبيل المكر والخداع ونيل مأربه، وغير ذلك كثير من صور الكذب التي دسها هؤلاء (راجع كتاب العواصم من القواصم)، ولقد كان من أعظم أهداف هؤلاء الخبثاء المعاصرين إقصاء الخلافة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة، ولذلك صوَّروا هارون الرشيد ظئرا للنساء لا همَّ له إلاَّ جمع الأموال وبناء القصور واللعب مع الجواري وشرب الخمور!!.

والخلافة الأموية والعباسية لا تنفك عن ذلك، وهي عبارة عن صراعات على الحكم ومؤامرات للوصول للسلطان. أما الخلافة العثمانية فهي خلافة الفقر والجهل والمرض!!!.

لقد ضاعت موازين الحق والعدل عند هؤلاء الكذبة الفجرة فلم يعرفوها ولم يحمدوا مسلكًا إلا لمن كان على شاكلتهم من الملاحدة والزنادقة ولما لا يفعلون ذلك، مع تمكن الجرأة من نفوسهم، فإخوانهم في الإلحاد والكذب والتضليل ذكروا أن أول من دعا بدعوة التوحيد هو إخناتون!! وأن العقيدة تطورت!! وأن الإنسان أصله قرد!!.

إن هؤلاء لم يعرفوا دينًا ولا دنيا ولذلك تصادموا، مع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (سورة الإسراء: ٧٠). ومع عشرات النصوص التي وضحت أن البشرية بدأت بنبي مكلم هو آدم عليه السلام، أي بدرجة من أعلى درجات الهداية، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون على التوحيد الخالص، كما في حديث ابن عباس، ثم طرأ الشرك على قوم نوح، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا

وأن الشرك الذي ظهر في البشرية لا يعد تطورًا في العقيدة، بل هو مخالفة للعقل والفطرة وللكتب المنزلة وللرسل الذين ابتعثهم الله، ليقولوا للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة الأعراف: ٥٩).

فليس إخناتون هو أول من دعا بدعوة التوحيد، وإذا كنا نرفض هذه التفاصيل التاريخية المكذوبة، فنحن أشد رفضًا للكذب في تقسيم مراحل التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث.

ووصف عصر النبوة والهداية، بأنه من العصور المظلمة!، فهذا التقسيم إن صحَّ مع أوربا، فلا يصح مع المسلمين فتاريخهم واحد، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر: ٢٤). ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة النساء: ١٦٥). ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل: ٣٦).

لا يصلح الكذب إلا في ثلاث

روى الشيخان[١] عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس - أو قال: «بين اثنين» - فينمي خيرًا أو يقول خيرًا**» - زاد مسلم - قال ابن شهاب: «**ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذبًا إلا في ثلاث، يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها**»، ولأبي داود والنسائي[٢]: «**ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث**». . الحديث.

وأخرج الإمام أحمد[٣] عن أسماء بنت يزيد مرفوعًا: «**كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاث خصال إلا رجل كذب لامرأته ليرضيها، أو رجل كذب في خديعة حرب، أو رجل كذب بين امرأين مسلمين ليصلح بينهما**»، وفي رواية: «**لا يحل الكذب**»، وهي عند الترمذي، وفي أخرى «**لايصلح الكذب**»، وقال: حديث حسن.

والخداع هو إرادة المكروه بالإنسان من حيث لا يعلم، وفي الحديث «**الحرب خدعة**»، فالكذب على الأعداء في أمر حربهم وجهادهم وما يتوصل به إلى خذلانهم وفشلهم، هو من جملة الأمور المشروعة، فلا يصح أن يصدقهم في الكشف عن أماكن المسلمين ومخابىء سلاحهم وعتادهم إذا غلب على ظنه إستلحاق المضرة بالمسلمين، وكذلك الكذب لإصلاح ذات البين بما يذهب وغر صدور الناس ويجمع شملهم ويضم جماعتهم ويزيل فرقتهم.

قال ابن مفلح في (الآداب الكبرى): ويحرم الكذب لغير إصلاح وحرب وزوجة، وقال ابن الجوزي: وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٦٩٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٧٥).

(٣) رواه أحمد (٢٦٢٨٩).

بالكذب فهو مباح إن كان ذلك المقصود مباحًا ، وإن كان واجبًا فهو واجب، قال ابن مفلح: وهو مراد الأصحاب ومرادهم هنا لغير حاجة وضرورة، فإنه يجب الكذب إذا كان فيه عصمة مسلم من القتل.

وعند أبي الخطاب: يحرم أيضًا ـ أي الكذب ـ لكن يسلك أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وقال ابن عقيل: هو حسن حيث جاز لا إثم فيه وهو قول أكثر العلماء، وقال الإمام المحقق ابن القيم في (الهدى): يجوز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن فمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، لاسيما تكميل الفرح وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، وكان الكذب سببًا في حصول المصلحة الراجحة، قال ونظير هذا الإمام والحاكم يوهم الخصم خلاف الحق ليتوصل بذلك إلى استعمال الحق، كما أوهم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام إحدى المرأتين بشق الولد نصفين حتى يتوصل بذلك إلى معرفة عين أمه.ا.هـ.

وقوله كما أوهم سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ إحدى المرأتين هذه القصة ذكرها الإمام ابن القيم في كتابه (الطرق الحكمية): وهي أن امرأتين ارتفعتا إلى نبي الله داود عليه السلام ادعتا ولدًا معهما فحكم به داود عليه السلام للكبرى، فقال سليمان: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فسمعت الكبرى بذلك، وقالت الصغرى: لا تفعل رحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى.

قال في (الطرق الحكمية): فأي شيء أحسن من اعتبار هذه القرينة الظاهرة فاستدل برضى الكبرى بذلك، وأنها قصدت الاسترواح إلى التأسي بمساواة الصغرى في فقد ولدها وشفقة الصغرى عليه وامتناعها من الرضى بذلك، دل على أنها هي أمه، وأن الحامل لها على الامتناع هو ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله في قلب الأم. ا.هـ.

وقصة الحجاج بن علاط ذكرها ابن القيم في (الهدي النبوي)، وابن هشام في (السيرة)، وأهل السير والمغازي، كما وردت أيضًا في (تحبير الوفا في سيرة المصطفى)، والحاصل أن الكذب مذموم وفاعله من الخير محروم وإنما يباح لما ذكرنا.

الكذبات الثلاث

ما ورد في السنة النبوية مما يشير ظاهره إلى عدم العصمة بحق إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لم يكذب إبراهيم ﷺ إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله عزَّ وجلَّ، قوله:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (سورة الصافات: ٨٩). **وقوله:** ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (سورة الأنبياء: ٦٣). وقال: «**بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى، فقال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية، فأُخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو يصلي فأومأ بيده وهيأ؟ قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر**». قال أبو هريرة: «**تلك أمكم يا بني السماء**»[(١)].

فهذا الحديث الشريف ليس فيه ما يدل على عدم العصمة، لأن النبي ﷺ لم يقصد بهذه الكذبات الثلاث حقيقة معنى الكذب، إنما قصد أن إبراهيم الخليل أخبر بإخبارات توهم الكذب في الصورة، وهي ليست بكذب في الحقيقة والواقع.

---

(١) البخاري (٥٠٨٤)، ومسلم (٦٠٣٠).

فقول إبراهيم لقومة: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ،إنما هو نوع من التَّهكُّم والسخرية بهم وبآلهتهم المعبودة، فأراد بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، أنه سقيم من عبادتهم لهذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن صاحبها شيئًا، والسقيم لا يتعلق بالجسد فقط بل يتعلق بالنفس كذلك، وخاصة إذا رأى قومه في الجهالة والضلالة يتيهون، ودعاهم إلى الهدى ولكنهم ظلوا في ضلالتهم يعمهون، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ،لم يكن في الحقيقة كذبًا وإنما هو نوع من الحجة الدامغة والبرهان الساطع أراد أن يقيمه إبراهيم على قومه.

فحين سألوه: من حطم هذه الأصنام؟ أشار إلى الصنم الأكبر، سخرية وتهكُّما بهم وبهذه الأصنام، ثم لما رآهم متعجبين من كلامه أجابهم بالجواب المُسكِت! ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٣). وأما قوله لزوجته سارة: «إنك أختي»، فإنما قصد به أخوة العقيدة وأخوة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٠). ولم يقصد به أخوة النسب لأنها زوجته وليست أخته.

وكل هذا كما يقول الصابوني في (النبوة والأنبياء): «إنما هو من التعريض لا من الكذب، الذي يؤاخذ صاحبه ويأثم فاعله»، وقد قال ﷺ: «**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**»، أي أن في التعريض ما يمنع المسلم عن الوقوع في الكذب المحرم، فليس إذًا في كلام إبراهيم ما يدل على تعمد الكذب الذي يُخِلُّ بعصمة الأنبياء وإنما هو نوع من التعريض المباح، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التورية والمعاريض

قال بعض العلماء: قد وردت السنة بالرخصة في الكذب في الحرب وإصلاح ذات البين، على وجه التورية والتأويل، دون التصريح به فإن السنة لا ترد بإباحة الكذب، لما فيه من التنفير.

وإنما ذلك عن طريق التورية والتعريض، كما سُئل رسول الله ﷺ، وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه، فقال له رجل: ممن أنت؟ قال: «من ماء»، فورَّى عن الإخبار بنسبه، بأمر محتمل، فظن السائل إنه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنما أراد رسول الله ﷺ أنه من الماء الذي يخلق منه الإنسان، فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه، وصدق خبره، وكالذي حكي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه كان يسير خلف رسول الله ﷺ حين هاجر معه، فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر، ولا يعرفون رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا بكر من هذا؟ فقال: «هاد يهديني السبيل»، فظنوا أنه يعني هداية الطريق، وهو إنما يريد هداية سبيل الخير، فصدق في قوله، وورّى عن مراده.

وقد روي عن النبي ﷺ: «إن في المعاريض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب»، وقال بعض أهل التأويل، في قوله تعالى: ﴿لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (سورة الكهف: ٧٣). إنه لم ينس، ولكنه معاريض الكلام، وقال ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يُصرَّح فيه بالكذب، قال السفاريني في (غذاء الألباب): فالكذب في الحرب هو أن يظهر من نفسه قوة ويتحدث بما يقوي أصحابه ويكيد به عدوه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الحرب خدعة» وكان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها.

والكذب للزوجة، هو أن يعدها ويمنيها ويظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه، ليستديم بذلك صحبتها ويصلح به خلقها، قال البغوي في «شرح السنة»: قال الحجاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: وظاهر كلام الأصحاب إباحة كذب الزوج للزوجة، دون كذبها له، قال: والظاهر إباحته لهما لأنه إذا جاز للإصلاح بين اثنين أجنبيين،

فجوازه للإصلاح بينها وبين بعلها(•) أفضل، وقد روى أن رجلاً في عهد عمر، قال لزوجته: نشدتك بالله هل تحبيني؟ فقالت: أما إذا نشدتني بالله فلا، فخرج الرجل حتى أتى عمر ﷺ فأرسل إليها، فقال: «**أنت التي تقولين لزوجك لا أحبك**»، فقالت: يا أمير المؤمنين نشدني بالله أفأكذبه؟ قال: «**نعم فاكذبيه، ليس كل البيوت تبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والإحسان**».

والكذب بين اثنين أو قبيلتين أو أكثر هو أن ينمي على أحدهما إلى صاحبه خيراً، ويبلغه جميلاً، وإن لم يكن سمعه منه يريد بذلك الإصلاح أو كان سمع منه كلامًا قبيحًا فبدله بخير منه، إذ لو وقف على ذلك لزادت الخصومة بينهما ونشأت العداوة، وقد قال ﷺ: «**ليس الكذاب من أصلح بين الناس فقال خيراً أو نمى خيراً**»(١)، «تنبيه» ظاهر كلام إمامنا ﷺ والأصحاب جواز الكذب في الصلح بين كافرين.

وقال عن قول ابن حزم في كتاب (الإجماع): اتفقوا على تحريم الكذب في غير الحرب، وغير مداراة الرجل امرأته، أو إصلاح بين اثنين، أو دفع مظلمة مرادة بين اثنين مسلمين أو مسلم وكافر، والله أعلم.

فهذا ما ورد فيه النص ويقاس عليه ما في معناه ككذبه لستر مال غيره عن ظالم، وإنكاره المعصية للستر عليه أو على غيره، ما لم يجاهر الغير بها بل يلزمه الستر على نفسه وإلا كان مجاهراً، اللهم إلا أن يريد إقامة الحد على نفسه كقصة ماعز، ومع ذلك فالستر أولى ويتوب بينه وبين الله تعالى، وكل ذلك يرجع إلى دفع المضرات.

وقد قدمنا عن الإمام الحافظ ابن الجوزي، إن ضابط إباحة الكذب، أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا به فهو مباح ،إن كان ذلك المقصود واجبًا فهو واجب، وكذا قال النووي من الشافعية: فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله

(•) بعلها: زوجها.

(١) سبق تخريجه.

فلقى رجلاً فقال: رأيت فلانًا فإنه لا يخبره به، ويجب عليه الكذب في مثل هذه الحالة، ولو احتاج للحلف في إنجاء معصوم من هلكة، قال الإمام الموفق: لأن إنجاء المعصوم واجب كفعل سويد بن حنظله، قال: خرجنا نريد النبي ﷺ ومعنا وائل بن حجر فأخذه عدوٌّ له فتحرج القوم أن يحلفوا فحلفت أنه أخي، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: **«صدقت المسلم أخو المسلم»**، ولكنه والحالة هذه ينبغي له العدول إلى المعاريض ما أمكن لئلاً تعتاد نفسه الكذب.

وفي حديث عمران بن حصين: **«إن في المعاريض لمندوحة من الكذب»**، أي: فسحة وسعة، يعني فيها ما يستغنى به الرجل عن الاضطرار إلى الكذب، وهو أن يريد بلفظه خلاف ظاهره كقوله هذا أخي وعنيَ في الدين وبالسقف وعنيَ السماء وبالفراش الأرض، وبالوتد الجبل، وباللباس الليل والنساء الأقارب، وبالبارية السكين التي تبري القلم، ولا بأس بتعلمها وتتبعها.

قال الإمام ابن الجوزي: قال الإمام عمر رضي الله عنه: **«ما يسرني أن لي بما أعلم من المعاريض مثل أهلي ومالي»**، وقال النخعي: لهم كلام يتكلمون به إذا خشوا من شيء يردون به عن أنفسهم. . والحاصل أن المعتمد في المذهب إن الكذب يجوز حيث كان لمصلحة راجحة، كما قدمناه عن الإمام ابن الجوزي وأن كان لا يتوصل إلى مقصود واجب إلا به، وجب وحيث جاز، فالأولى استعمال المعاريض.

وأما الحلف فإن كان ظالما حنث(•)، ولو أوَّل(•)، لقوله ﷺ: **«يمينك على ما يصدقك به صاحبك»**، وإن كان مظلومًا(•)، كالذي يستحلفه ظالم على شيء لو صدقه لظلمه أو ظلم غيره، أو نال مسلمًا منه ضرر، فهنا له تأويله، وكذا إن لم يكن ظالمًا

(•) أي: تلزمه كفارة اليمين.

(•) أي: ولو كان متأولاً.

(•) أي: الحالف.

ولا مظلومًا ولو بلا حاجة، ويقبل في الحكم مع قرب الاحتمال وتوسطه لا مع بعده، سواء في ذلك الطلاق والعتاق واليمين المكفرة، وحيث حلف كاذبًا ولم يؤوِّل حنث، ولو مظلومًا، ولو استحلفه ظالم، ما لفلان عندك وديعة وكان له عنده وديعة، فإنه بما نوى أو ينوي غير الوديعة أو غير مكانها، أو يستثنى بقلبه فإذا فعل ذلك لم يحنث، فإن لم يتأول أثم، وهو دون إثم إقراره بها ويُكفِّر كما في (الإقناع) وغيره والله أعلم. ا.هـ.

الصدق المذموم

قال الماوردي في (أدب الدنيا والدين): اعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب في القبح والمَعَرَّة ويزيد عليه في الأذى والمضرة، وهي الغيبة والنميمة والسعاية، فأما الغيبة، فإنها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر، قال الله تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾ (سورة الحجرات: ١٢)، يعني أنه كما لا يحل لحمه ميتًا، لا تحل غيبته حيًا.

وروى أن امرأتين صامتا علي عهد رسول الله ﷺ وجعلتا تغتابان الناس، فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «**صامتا عما أحل لهما، وأفطرتا على ما حُرم عليهما**»[1]، وروى عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ «**من ذب عن عرض أخيه بالغيبة، كان حقًا على الله أن يعتقه من النار**»[2]، وقال عدي بن حاتم: الغيبة رعي اللئام.

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الغيبة فاكهة النساء، وقال رجل لابن سيرين ـ رحمه الله ـ: إني اغتبتك فاجعلني في حل، فقال: ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك، وقال ابن المساك: لا تعن الناس على عَيبك بسوء غيبك،

---

(١) رواه أحمد (٢٢٥٤٥).

(٢) رواه أحمد (٢٦٣٢٧).

وقال الشاعر:

لا تلتمس من مساوئ الناس ما ستروا ■■■ فيهتك الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ■■■ ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا

وربما عَذَر المغتاب نفسه بأنه يقول حقا، ويعلن فسقًا، ويستشهد بما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة! الإمام الجائر، وشارب الخمر، والمعلن بفسقه**»، فيبعد من الصواب ويجانب الأدب لأنه وإن كان بالغيبة صادقًا، فقد هتك ستراً، كان بصوته أولى، وجاهر من أسر وأخفى، وربما دعا المغتاب ذلك إلى إظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفده ذلك إلا فساد أخلاقه، من غير أن يكون فيه صلاح لغيره، وقد قيل: لانوشروان ما الذي لا خير فيه؟ قال: ما ضرّني ولم ينفع غيري، أو ضر غيري ولم ينفعني، فلا أعلم فيه خيراً.

وقيل في منثور الحِكَم، لا تبدِ من العيوب ما ستره علام الغيوب، وقد روى العلاء ابن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة قال: «**أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، و إن لم يكن فيه فقد بهته»**»[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١١). إنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه.

ودخلت امرأة على النبي ﷺ مستفتية، فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها: «**يا رسول الله ما أقصرها! فقال: «مهلا إياكِ والغيبة» فقالت يا رسول الله:إنما قلت ما فيها، قال: «أجل، ولولا ذلك لكان بهتانًا»**.

(١) مسلم (٤٦٩٠)، «أتدرون ما الغيبة».

وسئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم؟ فقال: اللئيم إذا غاب عاب، وإذا حضر اغتاب، فأما الخبر فمحمول على الإنكار لأفعال هؤلاء، ولا يكون الإنكار غيبة لأنه نهي عن منكر وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر.

وأما النميمة: فهي أن تجمع إلى مذمة الغيبة رداءة وشراً، وتضم إلى لؤمها دناءة وغدراً، ثم تؤول إلى تقاطع المتواصلين، وتباعد المتقاربين، وتباغض المتحابين، وروى شهر بن حوشب[١]، عن أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ، أنه قال: «**ألا أخبركم بشراركم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**من شراركم المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب**». وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شفَّار**(•)، **ملعون كل قتات، معلون كل منان**(•)».

وقال بعض الأدباء لم يمش ماش شر من واش، فأما السعاية: فهي شر الثلاثة لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة ولؤم النميمة، التغرير بالنفوس والأموال، والقدح في المنازل والأحوال، وروى ابن قتيبة، أن النبي ﷺ قال: «**الجنة لا يدخلها ديوث**(•) **ولا قلاع**(•)».

وقال بعض الحكماء: الساعي بين منزلتين قبيحتين: إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة، وإما أن يكون قد كذب فخالف المروءة، وقال بعض الحكماء: الصدق يزين كل أحد إلا السعاة، فإن الساعي أذم، وآثم ما يكون إذا صدق.

---

(١) رواه أحمد (٢٦٣١٩).

(•) «**الشفَّار**»: المحرش بين الناس، يلقي بينهم العداوة، و«**القتَّات**»: النمام، وقيل النمام الذي يكون مع القوم يتحدثون، فينم حديثهم، و«**القتَّات**» أيضًا: هو الذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون، فينم حديثهم.

(•) «**المنَّان**»: هو الذي يصنع الخير ويمن، وقيل في منثور الحكم: النميمة سيف قاتل.

(•) «**الديوث**»: هو الذي يجمع بين الرجال والنساء، سمى بذلك لأنه يديث بينهم.

(•) «**القلاع**»: هو الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء، سمى بذلك لأنه يأتي الرجل المتمكن عند الأمير، فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه.

وقال بعض البلغاء: النميمة دناءة والسعاية رداءة، وهما رأس الغدر، وأساس الشر، فتجنب سبلهما واجتنب أهلهما، ووقَّع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى إليه: نحن نرى قبول السعاية شرا منها لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، فاتقوا الساعي فإنه إن كان في سعايته صادقًا، كان في صدقه آثما، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة.

وقال الإسكندر لرجل سعى إليه برجل: أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك؟ قال: لا، قال: فكُفَّ عن الشر يكف عنك الشر .

ورويَ أن الله تعالى أوحى إلى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، أن في بلدك ساعيًا، ولست أمطرك وهو في أرضك، فقال: يا رب دلني عليه حتى أخرجه، فقال: يا موسى أكره النميمة، وأنم؟.

ما يباح من الغيبة

الغيبة: حرام وهي كبيرة من الكبائر.

وتعريفها: هو ذكرك أخاك بما فيه من خلقه، وبما يكره، إن كان فيه فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته، وتكون بذلك دائرًا بين مذمتين ومفسدتين لا مصلحة فيهما، وهذا لا يمنع من ورود بعض المواطن التي يباح فيها ذكر الإنسان بما فيه، فإذا وجدت النية الصحيحة الخالصة والاقتصار على الحاجة أو الضرورة بلا تشفٍ ولا رغبة بتشهير لتحقيق المصلحة ودفع المضرة والمفسدة فلا إثم.

ومن هذه الأمور التي تباح فيه الغيبة:

١ ـ **جرح المجروحين من الرواه:** كاتهام البعض بالكذب، ووضع الحديث، وقد تكلم الإمام مسلم عن ذلك في مقدمة صحيحه، فقال: وأشباه ما ذكرنا من كلام أهل العلم في متهمي رواة الحديث واخبارهم عن معايبهم، كثير يطول الكتاب بذكره على

استقصائه، وفيما ذكرنا كفـاية لمن تفهم وعقل مذهب القوم فيما قالوا من ذلك وبيَّنوا وإنما ألزموا أنفسهم، الكشف عن معـايب رواة الحديث وناقلي الأخبار، وأفتوا بذلك حين سئـلوا لما فيـه من عظيم الخطر، إذ الأخبـار في أمر الدين إنما تأتي بتـحليل أو تحريم، أو أمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب.

فإذا كان الراوي لها ليس بمعـدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عند من قد عرفه، لو لم يبين ما فيه لغيره من جهل مـعرفته، كان آثمًا بفعله ذلك غاشًا لعوام المسلمين إذ لا يؤمَنُ على بعض مَن سـمع تلك الأخبـار أن يستـعملهـا أو يستـعمل بعضـها، ولعلها أو أكـثرها أكاذيب لا أصل لهـا مع أن الأخبار الصِّـحاح من رواية الثقات، وأهل القناعة، أكثر من أن يضطر إلى نقل من ليس بثقة ولا مقنع.

ولا أحسب كثيراً ممن يعرج من الناس علـى ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف والأسانيد المجهولة، ويعتد بروايتها بعد معرفته بما فيها من التوهن والضعف، إلا أن الذي يحمله على روايتـها والاعتداد بها إرادة التكثـر بذلك عند العوام، ولأن يقال ما أكـثر ما جمع فلان من الحـديث وألف من العدد، ومن ذهب في العلم هذا المذهب، وسلك هذا الطريق، لا نصيب له فيه وكان بأن يُسمى جاهلاً أولى من أن يُنسب إلى علم ا.هـ.

وقال الإمام النووي: اعلم أن جرح الرواة جائز بـل واجب بالاتفاق، للضرورة الداعية إليه، لصـيانة الشريعـة المكرمة، وليس هو من الغيـبة المحرمـة، بل من النصيحـة لله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يزل فضلاء الأئمة وأخيارهم، وأهل الورع منهم يفعلون ذلك. ا.هـ.

٢- التظلم للحاكم والقاضي: ومن يفصل في الخصومات وذلك لما روته عائشة رضي الله عنها قالت: **«قالت هند امرأة أبي سفيـان للنبي ﷺ إن أبا سفيـان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم؟ قال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»**(١).

---

(١) متفق عليه، البخاري (٩/٥٣٥٩).

٣- **ويلحتق بذلك الاستفتاء:** كأن يقول للمفتي، ظلمني فلان أو أخي.

٤- **الشهادة والمشاورة:** لحديث فاطمـة بنت قيس رضي الله عنها قالت: «**أتيت النبي ﷺ، فقلت: إن أبا الجهم ومعاوية خطباني، فقال: رسول الله ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه»**[1]، وفي رواية.. «**وأما أبو الجهم فضراب للنساء**»، قال الشوكاني: ومما يدل علـى ذلك دلالة بينة، ما ورد في النصيحة لله ولـكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمـين وعامتـهم وخاصتـهم فإن بيان كـذب الكذابين من أعظم النصيـحة الواجبة لله ولرسوله ولجميع المسلمين.

وكذلك جرح من شهد في مال أو دم أو عرض بشـهادة زور، فإنها من النصيحة التي أوجبها الله على عباده، وأخذهم بتأديتها وأوجب عليهم القيام بها.

٥- **الاستعانة على تغيير منكر أو رفع بلاء عن مسلم وتحذير المسلمين ونصحهم من أصحاب الشر وممن يضر المسلمين:** فـعن الشريد رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «**لَيُّ الواجـد يحلُّ عـرضـه وعـقـوبتـه**»[٢] وفي بعض الروايات: «**مَطلُ الغني ظلم يحل عـرضه وعقوبته**»، قال ابن المبارك: يحل عرضه يغلظ له وعقوبته يحبس.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سـفر أصاب الناس فيه شدة، فـقال عبـد الله بن أبي: «لا تنفقوا على مـن عند رسول الله حتى ينفـضوا»، وقـال: «لئن رجعنا إلى المدينة لـيخـرجن الأعز منهـا الأذل»، فأتيت رسـول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فـأرسل إلى عبد الله بن أبي، فاجتهد يمينه مـا فعل، قالوا: كذب زيدٌ يا رسول الله ﷺ، فوقع في نفسي مما قالوه شدةٌ حتى أنزل الله تعالى تصديقي: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ**﴾ (سورة المنافقون: ١). ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٩).

(٢) رواه أحمد (١٨٦٣٧)، قال البخاري: باب لصاحب الحق مقال، ويذكر.. كتاب «الاستقراض وأداء الدين».

(٣) متفق عليه، البخاري (٨/٣٠٣/٤٩٠).

٦ـ **ذكر المجاهر بما فيه، أو صاحب البدعة ببدعته:** فعن عائشة رضي الله عنها، أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فقال: «**ائذنوا له بئس أخو العشيرة**»(١).

قال النووي في (رياض الصالحين): احتج به البخاري في جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريبة، وعن عائشة رضي الله عنها أيضًا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا**»(٢)، وكانا من المنافقين.

٧ـ **التعريف إن كان الإنسان معروفًا بلقب معين:** كالأعرج والأصم والأعمى ونحو ذلك، ولا يحل إطلاقه على وجه التحقير والتنقيص، وإن أمكن تعريفه بغير ذلك أفضل وأولى.

فعن أشير بن جابر رضي الله عنه أن أهل الكوفة وفدوا على عمر رضي الله عنه، وفيهم رجل ممن كان يسخر بأويس، فقال عمر: هل ههنا أحد من القرنيين(•)؟ فجاء ذلك الرجل، فقال عمر إن رسول الله ﷺ قد قال: «**إن رجلاً يأتيكم من اليمن، يقال له أويس لا يدع أمًا له، قد كان به بياض(•) فدعا الله تعالى فأذهبه عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم فمن لقيه منكم فليستغفر لكم**»(٣).

قال الشوكاني: فإن كان صاحب اللقب لا يعرف إلا به، ولا يعرف بغيره أصلاً؟ قلت: إذ بلغ الأمر إلى هذه النهاية، ووصل البحث إلى هذه الغاية، لم يكن ذلك اللقب لقبًا بل هو الاسم الذي يُعرف به صاحبه إذ لا يعرف باسم سواه قط.

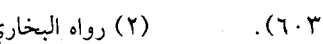

---

(١) متفق عليه، البخاري (١٠/ ٦٠٣٢).
(٢) رواه البخاري (١٠/ ٦٠٦٧).
(•) نسبة إلى قبيلة قرن.
(•) برص.
(٣) رواه مسلم (٦٣٧٤).

الكذب وبعض أحوال الكذابين

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٦١). وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (سورة النحل: ١٠٥). وقال: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٠). وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (سورة الزمر: ٦٠). وقال ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ (سورة البقرة: ٤٢) أي: لا تخلطوا الصدق بالكذب.

ويقال راوي الكذب أحد الكذابين، ويقال: رأس المآثم الكذب وعمود الكذب البهتان، وقيل: أمران لا ينفكان من الكذب: كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٨). وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقيل في منثور الحكم: الكذاب لص، لأن اللص يسرق مالك، والكذاب يسرق عقلك، وقال بعض الحكماء: الخرس خير من الكذب، وصدق اللسان أول السعادة، وقال بعض البلغاء: الصادق مصون جليل والكاذب مُهان ذليل.

وقال بعض الأدباء: لا سيف كالحق ولا عون كالصدق، وقال بعض الشعراء:

وما شيء إذا فكرت فيه ■●■ بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه ■●■ وأبعد بالبهاء من الرجال

وقال الأصمعي: قلت لكذاب أصدقت قط، قال: لولا أني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا فتعجب، وقال محمود بن أبي الجنود:

لي حيلة فيمن ينم ■●■ وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ■●■ فحيلتي فيه قليله

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب، ومن سحاب تموز، وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب، وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتي، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة، ما لا أجده بالصدق، مع ما ينالني من نفعه، وقال البعض: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله.

ولبعضهم:

حسب الكذوب من البلية ■●■ بعض ما يحكى عليه
فمتى سمعت بكذبة ■●■ من غيره نسبت إليه

والكذب: جماع كل شر، وأصل كل ذم لسوء عواقبه، وخبث نتائجه، لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة، لذلك قيل: من قل صدقه قل صديقه، والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية، كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة.

فالصدق: هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، **والكذب:** هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواعٍ، فدواعي الصدق لازمة، ودواعي الكذب عارضة، لأن الصدق يدعو إليه الشرع والعقل والكذب يصدُّ عنه الشرع، ويمنع منه العقل.

ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة، حتى تصير متواترة، ولم يجز أن تستفيض الأخبار الكاذبة، لأن اتفاق الناس في الصدق والكذب إنما هو لاتفاق الدواعي، فدواعي الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها بعكس الكذب، قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلا من مهانته ■●■ أو فعله السوء أو من قلة الأدب
لَبعضُ جيفةِ كلبٍ خيرُ رائحةٍ ■●■ من كذبة المرء في جد وفي لعب

لما نصب معاوية رضي الله عنه ابنه يزيد ، لولاية العهد أعده في قبة حمراء، وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر، فقال: جزاك الله خيراً عما تقول ثم أمر له بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيها.

وعند عبد الله بن السدى قال: قلت لابن المبارك: حدثنا حديثا، قال: ارجعوا فلست أحدثكم فقيل له إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لَكَفَّرْت وحدثتكم، ولكن لست أكذب، فكان هذا أحب إلينا من الحديث.

وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنينه في سقمه، وحتى أن الصبي ليبكي فتقول له أمه اسكت وأشتري لك كذا ثم لا تفعل فتكتب كذبة.

وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى الله من اللسان إذا كان صدوقًا، ولا مضغة أبغض إلى الله من اللسان، إذا كان كذوبًا.

فأعظم الخطايا اللسان الكذوب، وقد ذكرنا المواطن التي يباح فيها الكذب، وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوي بذلك جأشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلا إليهم، قالوا: جاءنا يكذب، وقال يحيى بن خالد: رأينا شارب خمر نزع، ولصًا أقلع، وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذابًا صار صادقًا.

وكان عمرو بن معد يكرب مشهوراً بالكذب، وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن أكان بن معد يكرب (فارس اليمن وكان شجاعًا)، يكذب في المقال ويصدق في الفعال.

بعض مثالب الكذب

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة، أصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا عاهدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**»(١).

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابًا**»(٣).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار**»(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**لايزال العبد يكذب، ويتحرى الكذب، فينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه، فيكتب عند الله من الكاذبين**»(٥).

وعن أبي برزة مرفوعًا: «**ألا إن الكذب يسود الوجه، والنميمة عذاب القبر**»(٦).

---

(١) الصحيحة (٣/ ١٤٧٠)، أحمد (٢١٦٩٥)، الحاكم (٤/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) الترمذي، سبق تخريجه، «صحيح الجامع» (٣٣٧٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

(٥) رواه مالك في «الجامع بلاغًا».

(٦) رواه أبو يعلى، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيديّ فأخرجاني إلى الأرض المقدسة...**» الحديث، وفيه «**فإذا رجل جالس ورجل قائم بيديه كلوب من حديد يدخل ذلك الكلوب في شدقيه حتى يبلغ قفاه**»، **قالا: الذي رأيته يشق شدقيه فكذاب يكذب الكذبة، تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة**»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث! إذا حدث كذب، وإذا أوعد أخلف وإذا عاهد غدر**». . زاد مسلم في رواية له: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة والمراء وإن كان صادقًا**»[(٣)]، ورواه أبو يعلى من حديث عمر.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب**»[(٤)]، وصح عن الصديق رضي الله عنه وروى مرفوعًا. . «**الكذب مجانب الإيمان**»[(٥)].

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك مصدق وأنت له كاذب**»[(٦)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إذا كذب العبد تباعد الملك ميلا من نتن ما جاء به**»[(٧)].

---

(١) رواه البخاري (١٢/ ٧٠٤٧).

(٢) رواه البخاري (١/ ٣٣)، ومسلم (٢٠٧).

(٣) رواه أحمد (٨٢٧٦).

(٤) رواه أحمد (٢١١٤٩).

(٥) رواه البيهقي.

(٦) رواه أحمد (١٦٩٧٧).

(٧) رواه الترمذي (١٨٩٥).

عن عائشة رضي الله عنها قالت : «ما كان من خلقٍ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ما اطلع على أحد من ذلك بشيء ، فيخرج من قلبه، حتى يعلم أنه قد أحدث توبة»، ولفظ الحاكم: «ما كان شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب وما جربه رسول الله ﷺ من أحد وإن قل فيخرج له من نفسه، حتى يجدد له توبة»[١] .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم، فيكذب ويل له ويل له»[٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل[•] مستكبر»[٣] ، وقد قال ﷺ : «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»، وفي رواية: «إثمًا»، وفي رواية: «بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع»[٤] .

قال النووي[٥]: معناه الزجر عن التحديث بكل ما سمع، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن.

قال نافع مولى ابن عمر رضي الله عنه قال: دخل ابن عمر المسجد فطاف سبعًا، وصلى ركعتين ثم خرج، فلقيه رجل من قريش على باب المسجد، فقال: يا أبا عبد الرحمن قد طفت وصليت، قال: نعم، قال: ما أسرع هذا!، قال: أجل أنتم أكثر منا طوافًا وصيامًا، ونحن خير منكم، نحن نأتي صدق الحديث، وأداء الأمانة، وإنجاز الوعد، وقال الحسن البصري: لا تستقيم أمانة رجل حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه.

---

(١) رواه الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، واللفظ للإمام أحمد.

(٢)رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢٢٣٧)، والنسائي.

(•) **والعائل:** هو الفقير.

(٣) رواه مسلم (٢٨٩).

(٤) رواه مسلم (٩).

(٥) شرح «صحيح مسلم» (١/ ٧٥).

وقال بعض الحكماء: من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه، وقال لقمان لابنه: يا بني! احذر الكذب، فإنه شهي كلحم العصفور، من أكل منه شيئًا لم يصبر عنه.

واعلم رحمك الله، أن الكذب على الله ورسوله، ليس كالكذب على سائر الخلق، وأن القدر الذي يأثم به الإنسان، هو ما تعمد فيه الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه، وإلا فالكذب، قد يطلق على الإخبار عن الشيء، على خلاف ما هو عليه حتى وإن لم يتعمده صاحبه، ولكنه لا يأثم في هذه الحالة.

دواعي الكذب

قال الماوردي: وأما دواعي الكذب: فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر، فيرى أن الكذب أسلم وأغنم، فيرخص لنفسه فيه اغترارًا بالخدع، واستشفافًا للطمع، وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل، وأقرب لما يخاف، لأن القبيح لا يكون حسنًا، والشر لا يصير خيرًا، وليس يجنى من الشوك العنب، ولا من الكرم الحنظل.

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**تحروا الصدق، وإن رأيتم فيه الهلكة**»، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لأن يضعني الصدق - وقلما يضع - أحبُ إليَّ من أن يرفعني الكذب، وقلَّما يفعل**»، وقال بعض الحكماء: الصدق منجيك وإن خفته، والكذب مرديك، وإن أمنته، وقال الجاحظ: الصدق والوفاء توأمان، والصبر والحلم توأمان، فيهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهما سبب كل فرقة، وأصل كل فساد.

ومنها: أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبًا، وكلامه مستظرفًا، فلا يجد صدقًا يعذب، ولا حديثًا يستظرف، فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة، ولا طرائفه معجزة، وهذا النوع أسوأ حالاً مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة.

وقد قال الجاحظ: لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده، وقال ابن المقفع: ولا تتهاون بإرسال الكذبة من الهزل، فإنها تسرع إلى إبطال الحق.

ومنها: أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه، فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها إليه، ويرى أن معرة الكذب غنم، وأن إرسالها في العدو سهم وسم. وهذا أسوأ حالاً من النوعين الأولين، لأنه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر، ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه.

ومنها: أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له عادة، ونفسه إليه منقادة، حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه، لأن العادة طبع ثانٍ، وقد قال الحكماء: من استحلى رضاع الكذب، عسر فطامه، وقيل في منثور الحكم: لا يلزم الكذاب شيء إلا غلب عليه.

أحاديث القصاص

(أحاديث القصاص)، رسالة في الأحاديث الشائعة بين الناس، لشيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وقد قدم لها محمد الصباغ بقوله: الأحاديث الشائعة بين عامة الناس كثيرة مختلفة المراتب، فمنها ما هو حق صحيح، ومنها ما هو باطل مكذوب، وللباطل المكذوب روافد عدة، ويبدو أن أكبر هذه الروافد ما سمعه الناس من القصاص ذلك لأن العامة، هم السواد الأعظم الذين يولعون بسماع القصاص، ويتهافتون على مجالسهم، ويتلقون عنهم.

وإن ظاهرة القصص والوعظ مثل كثير من الظواهر، لها جوانب مؤذية ضارة ولها جوانب نافعة مفيدة، وإن أكبر عامل من عوامل انحرافها أن عددًا كبيرًا من الناس اتخذها مهنة له يعيش من ورائها، ومن هنا غدت وسيلة للكسب، يسعى صاحبها وراء رزقه، ولذلك تراه يسارع في ابتغاء مرضاة العامة، فهو حريصًا على رضاهم وسرورهم وليس حرصًا على تقويمهم ولا تعليمهم.

والعامة أبدًا وفي كل عصر يولعون بالغريب، ويعجبون بالخرافة، ويستمتعون بالعجائب، حتى أضحى القاص، كالمغني الذي لا هم له إلا إطراب السامعين، إن هؤلاء القصاص قوم مهمتهم الكلام، وغايتهم أن يستحوذوا على إعجاب السامعين، ولما كان الناس كما أسلفت يتطلعون دائمًا إلى أن يسمعوا الغريب الجديد، كان هذا دافعًا يحمل هؤلاء القصاص الذين لا يخافون الله، على الكذب والاختراع حتى يظفروا بمطلبهم، وكانوا بعد أن ينتهوا من إلقاء قصصهم يعمدون إلى استجداء الناس وسؤالهم العطايا. . . وإنه لأمر مذل مهين.

قال ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث): والوجه الثاني: القصاص، فإنهم يميلون وجه العوام إليه، ويشيدون ما عندهم بالمناكير والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعود عند القاص، ما كان حديثه عجيبًا خارجًا عن نظر المعقول، أو كان رقيقًا يحزن القلب، فإذا ذكر الجنة قال: فيها الحوراء من مسك أو زعفران، وعجيزتها ميل في ميل، ويبوىء الله وليَّه قصرًا من لؤلؤة بيضاء فيها سبعون ألف مقصورة في كل مقصورة، سبعون ألف قبة. . فلا يزال هكذا في السبعين ألفًا لا يتحول عنها.

ويحسن بي أن أورد نموذجين يمثلان دجل هؤلاء القصاص وكذبهم وجرأتهم على الله:

١ - روى ابن الجوزي في (الموضوعات): أن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صليا في مسجد الرصافة، فقام بين أيديهم قاصٌ، فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال لا إله إلا الله، خلق الله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب وريشه من مرجان»** وأخذ في قصه نحوا من عشرين ورقة!!، فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين، وجعل يحيى بن معين ينظر إلى أحمد بن حنبل، فقال له: أنت حدثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت هذا إلا الساعة، فلما فرغ من قصصه وأخذ

العطيات، ثم قعد ينتظر بقيتها، قال له يحيى بن معين بيده: تعال، فجاء متوهمًا لنوالٍ «عطية»، فقال له يحيى: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، فقال: أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل، وما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ﷺ، فقال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، ما تحققت هذا إلا الساعة!! كأن ليس في الدنيا يحيى ابن معين وأحمد بن حنبل غيركما!! وقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين!!.

٢ ـ وروى الطرطوشي في كتابه (الحوادث والبدع): أن الأعمش سمع رجلاً يقول: عن الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي وائل، فتوسط الأعمش الحلقة، وجعل ينتف شعر إبطه، فقال له القاص: يا شيخ، ألا تستحي؟ نحن في علم وأنت تفعل مثل هذا؟! فقال الأعمش: الذي أنا فيه خير من الذي أنت فيه، قال: كيف ذلك؟ قال: لأني في سُنَّة وأنت في كذب، أنا الأعمش! وما حدثتك مما تقول شيئًا.

ويبدو من تتبع أحوال هؤلاء القصاص وحوادثهم أنهم كانوا جهلة ليس عندهم شيء من العلم، وكل ما لديهم مقدرة على الكلام واختراع أقاصيص مكذوبة ا.هـ.

وقد نقل عن بعض الكرامية وبعض المتصوفة، إباحة الوضع في الترغيب والترهيب، وهو خطأ من فاعله نشأ عن جهل، لأن الترغيب والترهيب من جملة الأحكام الشرعية، واتفقوا على أن عمد الكذب على النبي ﷺ من الكبائر، وبالغ أبو محمد الجويني فكفَّر من تعمَّد الكذب على النبي ﷺ.

ولو تتبعنا لوجدنا أن أسباب الوضع كثيرة، منها: غفلة المحدِّث، أو اختلاط عقله في آخر حياته، أو التكبر عن الرجوع إلى الصواب بعد استبانة الخطأ لسهو مثلا.

ومنهم قوم وضعوا الأحاديث لا يقصدون إلا الترغيب والترهيب، ابتغاء وجه الله فيما يزعمون، وآخرون وضعوها انتصاراً لمذهبهم، ومنهم طائفة أهمتهم أنفسهم فاختلقوا ما شاءوا، للتقرب من السلاطين والأمراء، أو لاستمالة الأغنياء إلى الإعطاء،

ومن هذا الصنف القصاص الذين انتحلوا وظيفة الوعظ والتذكير في المساجد والمجامع، وأخذوا يهدمون من أركان هذا الدين، لمال يقتنونه أو حطام خبيث يلتهمونه.

القصص الخيالي المكذوب

تباعدت الدنيا عن دين ربها، وتسرب الإلحاء إلى نفوس العباد، وغدت الحياة مادية، وتم الطعن والتشويه في الكثير من معاني الإيمان، بل حورب الإسلام بيد أبنائه بعد أن كان يُحَارب بيد أعدائه، وأصبحت العلمانية اللادينية هي اللافتة المرفوعة على معظم البلدان حتى من ينتسب منها للإسلام، وإذا كان على ابن أبي طالب، كان يأمر بإخراج القصاص من المساجد وهم الذين يرغبون في الدين ويرهبون من تركه - بزعمهم - وذلك لخطورتهم.

فكيف يكون الحال مع القصص الخيالي المكذوب، الذي ينشر الخرافات والخزعبلات والأساطير، كما هو الحال في قصة شهرزاد وعلاء الدين والفانوس السحري، وكما هو مشاهد في قصص الأطفال وبرامجهم بصفة خاصة، كمجلة ميكي وتم تم وسوبرمان... وعشرات القصص التي تدفعها المطابع كل يوم، وكذلك برنامج سلاحف النينجا وجرنديزر.. وكَمٍ رهيبٍ من المواد المدروسة، لا تقل خطورة عن أحاديث القصاص، لأنها وإن لم تتحدث في الدين وتنسب له مباشرة ترغيبًا وترهيبًا، إلا أنها هادمة للدين، ومُبعدة عنه بما تبثُّه من عقائد وتصورات حول الكون والحياة وإصلاح المجتمع، فماذا بعد الحق إلا الضلال!.

وأمر القصة المكذوبة لا يهتم بالصغار، فما أكثر الخياليات المكذوبة في عالم الكبار، والتي يطلق عليها اسم القصة ويتم تنويعها إلى قصة طويلة أو قصيرة، وهذه وتلك لها أساتذتها!! من كبار الكتَّاب والأدباء كما يقولون، وإذا تأملت في كتاباتهم وجدت صور العشق والحب، وهذا اصطلحوا على تسميته بـ (الأدب المكشوف أو الأدب الغريزي - أو أدب الجنس)!! ومن جملة أنواعه القصص البوليسي.

وهذا وذاك يطلق الكاتب لعقله العنان، في اختلاف المواقف القصصيه، ونادراً ما تجد هدفًا شرعيًا نبيلاً، بل هي غايات منحطة، يسعى هؤلاء لترويجها وهذا في الأعم الأغلب، ولو صح الهدف والمقصد فلابد من تخطئة الأسلوب حيث إنه عبارة عن حكايات مكذوبة، ومن المعلوم أن الغاية لا تبرر الوسيلة، فلو كنا ننشد الفضيلة حقا، ففي القصص القرآني وسير الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان كفاية بإذن الله، ولا بأس بحكاية القصص الواقعي، إذا كان في ذلك مصلحة وفائدة وأردنا ضرب المثل واستخلاص العبرة.

إن القصص الخيالي، هو صورة من صور الكذب، ولابد من تسمية الأشياء باسمها وشيوع الشيء أو إقرار الكثرة به لا يجعله مشروعا، فالحق حق وإن قل حاملوه، والباطل باطل وإن كثر القائلين به، فاسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

كذبة أبريل ... والكذب الأبيض

علمت معنى الكذب، وحكمه، وكثرة النصوص التي وردت بذمه، سواء كان على سبيل الجد أو الهزل والمزاح، وقد ذكرت الحالات التي يباح فيها الكذب أو التعريض، على سبيل الاستثناء من عموم النهي، قال الغزالي: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا.

فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فإن كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم، قد اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب، وإن كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين إلى استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب، فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما

أمكن لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه، فيخش أن يتداعى إلى ما يستغني عنه، وإلا ما لا يقتصر على حد الضرورة، يكون الكذب حرامًا في الأصل إلا الضرورة.

وفي (فتح الباري جـ(٥)، ص ٣٠٠): وكما اتفق العلماء، على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل، إنما هو فيما لا يسقط حقا عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أو لها، وكذا في الحرب في غير التأمين، واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار، كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختفٍ عنده، فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم والله أعلم.

وعلى ضوء ما تقدم يكون الحكم على الكذب، وهل هو أبيض كما يقول الناس أم هو أسود، وقد شاع استخدام الكذب في شهر إبريل بصفة خاصة، وكأنها من مكمِّلات أيامه فترى الناس يمزحون ويسخرون ويكذبون ثم يقول بعضهم للبعض الآخر: هذه كذبة إبريل، وإبريل هو الشهر الرابع من السنة الميلادية، وكذبة إبريل طقوس قيل: نشأت مع احتفالات الربيع في ٢١ من شهر مارس، ويرى البعض أن هذه البدعة بدأت في فرنسا عام ١٥٦٤م، بعد فرض التقويم الجديد، ويقال: إن هذه البدعة تمتد إلى عصور قديمة واحتفالات وثنية لارتباطها بتاريخ معين في بداية فصل الربيع، إذ هي بقايا طقوس وثنية، ويقال إن الصيد في بعض البلاد يكون خائبًا في أول أيام الصيد في بعض البلاد في الغالب، فكان هذا قاعدة لهذه الأكاذيب التي تختلق في أول شهر إبريل، ويُطْلِق الإنجليز على اليوم الأول من شهر إبريل اسم يوم جميع المغفلين والحمقى، لما يفعلونه من أكاذيب حيث قد يصدقهم من يسمع فيصبح ضحية لذلك فيسخرون منه .

اعلم ـ رحمك الله ـ أنه لا يجوز العمل بإبريل ولا بكذبة إبريل، ولا يصح أن يكون إبريل بديلاً عن شهر ربيع الثاني، ولا أن تكون السنة الميلادية بديلاً عن السنة الهجرية، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة التوبة: ٣٦).

وهذه الأشهر هي التي تعرفها العرب، وهي التي ارتبطت بها الأحكام الشرعية دون الأشهر الإفرنجية، وقد علمنا ما جاء في حرمة الكذب سواء كنَّا في هذا الشهر أو غيره وهذه الأشهر الميلادية لا يصح أن تكون ذريعة لمواقعة ما حرم الله ولا أن تكون تدريبا للعباد على الكذب.. فهل أنتم منتهون؟ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.

أمارات الكذب

جاء في كتاب (أدب الدنيا والدين): «واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه، فمنها: أنك إذا لقنته الحديث تلقنه، ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده، ومنها: أنك إذا أشككته فيه تشكك، حتى يكاد يرجع فيه ولولا تشكيك ما خالجه الشك فيه.

ومنها: أنك إذا رددت عليه قوله حَصِر وارتبك، ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين، ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (الأولى أن يقال ﷺ كما نفعل مع سائر الصحابة): الكذب كالسراب.

ومنها: ما يظهر عليه من ريبة الكذابين، وينم عليه من ذلة المتوهمين لأن هذه أمور لا يمكن دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتها، ولذلك قال الحكماء: العينان أنم من اللسان.. وقال بعض البلغاء: الوجوه مرايا، تريك أسرار البرايا (الخلائق)، وقال بعض الشعراء:

تريك أعينهم ما في صدورهم ▪●▪ إن العيون يؤدي سرَّها النظرُ

وأذا اتسم (وصف) بالكذب، نُسبت إليه شوارد الكذب المجهولة، أُضيفت إلى أكاذيبه زيادات مفتعلة، حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه، فيجمع بين معرة الكذب منه، ومضرة الكذب عليه، وقد قال الشاعر:

حسب الكذوب من البلية ▪●▪ بعض ما يُحكى عليه

فإذا سمعت بكذبة ▪●▪ من غيره نُسبت إليه

ثم إنه إن تحرى الصدق اتُّهِم، وإن جانب الكذب كُذِّب، حتى لا يعتقد له حديث مصدق، ولا كذب مستنكر، وقد قال الشاعر:

إذا عرف الكذاب الكذب لم يكد ... يصدق في شيء وإن كان صادقا

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه ... وتراه ذا حفظ إذا كان حاذقا» ا.هـ

فانظر رحمك الله، كيف تنعكس أمارات الكذب على وجه الكذاب، وقد مر بنا قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما رأى النبيَّ ﷺ: «**فعرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب**»، ثم انظر كيف يحمل على الكذاب كذب الآخرين، وينسب إليه.

ولا عجب فالجزاء من جنس العمل، واعمل ما شئت كما تدين تدان، ثم أنه إن تحرى الصدق اتُّهِمَ، ولا بأس بتجرع مرارة الدواء، فالمرض يحتاج إلى علاج ولابد فيه من الصبر ولا مناص ولا مفر من الصدق حتى وإن اتُّهمت، فاسترجع واحتسب وأكثر من الدعاء والاستغفار ولا تنس قوله سبحانه: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾، ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ (سورة الطلاق: ٢-٤). وإذا كانت الألسنة قد انطلقت فيك بالذم، فاعلم أن الله قادر على أن يحولها فيك بالمدح، فاستعن به سبحانه وتوكل عليه واعلم أنه لا حول ولاقوة إلابه.

أمثال شعبية تحرض على الكذب

السلوك مرآة الفكر كما يقول العلماء، والأمثال الشعبية من الأمور المؤثرة في الفكر والسلوك، بل والمخربة للكثير من ذلك، ومن جملة هذه الأمثال ما ذكره صاحب كتاب (الأمثال الشعبية في قفص الاتهام) من قولهم: «كذب مساوى ولا صدق مبعزق»، قال: يقصدون كذباً مقبولاً لا مبالغة فيه، خير من صدق مبعثر ليس فيه انسجام بين أجزائه، ورد على ذلك بقوله: هذا المثل يتعارض مع ما حث عليه الشرع الحكيم من ضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة، من البر والوفاء والصدق وغير ذلك من فضائل حسن الخلق.

فبينما يحث المثل المرء على الكذب يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة التوبة:١١٩). كما يحثنا رسول الله ﷺ على الصدق، فيقول: «**تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة**»[١]، وقد يتعجب البعض متسائلاً كيف تكون النجاة في الصدق ونحن نرى الهلاك فيه أحيانا؟ فيجيب رب العزة، قائلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (سورة غافر:٢٨). وهل يجهل من يتخذ من هذا المثل دستوراً في حياته، أن عليه رقيبًا موكلاً به عندما يتكلم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (سورة ق:١٨). وإذا لم يجهل ذلك... فلماذا لم يمتثل لأمر الله تعالى؟ ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة ٤٢)، كأننا بهذا المثل وقد عمى تماما عن النبراس النبوي، الذي أنار لنا السبيل حتى لا نتردى إلى سوء المآل، حيث يقول الرسول ﷺ: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عن الله كذابًا**»[٢].

ونتساءل ماذا تكون صورة معاملاتنا اليومية، إذا اتخذنا هذا المثل قاعدة في حياتنا؟، هل يرغب من ينطق بهذا المثل أن يخدعه الآخرون، فيلتزمون بمنهج هذا المثل في تعاملهم معه؟ حقا.. لقد صدق من قال: «**كبرت خيانة، أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق، وأنت به كاذب**»[٣].

من ذلك كله علينا أن نفهم أنه ليس في الإسلام كذب مساوٍ أو موافق أفضل من صدق (مبعزق) أو مخالف.. إنه قول هراء، ما أنزل الله به من سلطان!! فهذا المثل يتضمن دعوة صريحة أو ضمنية لإباحة الكذب.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

ومن هذه الأمثال التي تبعث على الكذب، قولهم: «اتمسكن لما تتمكن»، أي أظهر المسكنة والتذلل حتى تتمكن من الأمر وتملك ناصيته، عندئذ افعل ما تريد، هذا المثل يصح من الجبابرة العتاة في ديارهم، مصداقًا للقول المأثور: ودارهم ما دمت في دارهم، بينما لا يجوز أن يستخدم كقاعدة في معاملاتنا اليومية مع سائر الناس، وإلا لصار اللؤم والاحتيال والرياء طبيعة المجتمعات، وهذا ما ينهى عنه الإسلام وينبذه من أخلاقياته وآدابه ولنتدبر القول الحكيم: **«كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك به مصدق، وأنت له به كاذب»**.

وهذا ما حذر منه الرسول ﷺ حيث قال: **«إن الكذب يكتب كذبا، حتى تكتب الكذيبة كذيبة»**[١]، وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عندما قال له أناس: إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال: كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ[٢]، وقد روي في هذا الشأن قوله ﷺ: **«إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»**[٣].

عجبًا... هذا المثل ذو الوجهين الذي لا يجعله مبدأ في حياته، إلا منافق يستخفى من الناس، ولا يستختفي من الله وهو معهم، وقد صور العليم الخبير من يسلك هذا المسلك الذي ابتعد عن الورع والخوف من الله فقال: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا**﴾ (سورة النساء:١٠٨).

وبالتالي فالمثل قد تلوث بالرياء، تلك الخصلة الذميمة التي قيل عنها: إن الرياء الشرك الأصغر[٤]، وقد يتساءل سائل: وماذا تكون نتيجة ذلك؟ يُجيب عن ذلك، هذا القول الحكيم: **«المكر والخديعة والخيانة في النار»**[٥]، أجل.. يتردى إلى هوة تلك

---

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٩).

(٢) رواه أحمد بمعناه (٥١١٨).

(٣) رواه أحمد (١٣٧).

(٤) رواه أحمد (٢٢٥٢٣).

(٥) رواه أبو داود.

الخصال المذمومة من اتخذ من هذا المثل دستوراً له في حياته مع الناس، دون تفرقة في المواقف أو الطباع، ومن هنا فالمثل كما اتضح لنا، خبيث المغزى لا يصح الالتفات إليه باتخاذه سبيلاً في قضاء حوائجنا. ا. هـ.

نحن بحاجة ماسة لمراجعة، ليس فقط الأقوال والأفعال، بل والمشاعر والأمثال والعادات والتقاليد، وكل حركة وسكنة حتى نتجنب صور الكذب الطارئة والموروثة ونكون مع الصادقين.

كثرة الكذب علامة من علامات الساعة

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**سيكون في آخر أمتي أناس، يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم**»[(١)]، وفي رواية: «**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم**»، وروى مسلم وعن عامر بن عبدة، قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث**»[(٢)].

وعن عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «**إن في البحر شياطين مسجونه أوثقها سليمان توشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا**»[(٣)]، قال النووي: معناه تقرأ شيئًا ليس بقرآن، وتقول: إنه قرآن لتغر به عوام الناس فلا يغترون.

لقد جعل علماء الحديث، هذه الروايات أصلا في وجوب التثبت في نقل الأحاديث، عن رسول الله ﷺ وتمحيص الرواة لمعرفة الثقة من غيره، وخصوصًا وقد أصبح بعض الناس لا يتورع عن كثرة الكذب.

---

(١) رواه مسلم (١٥).

(٢) رواه مسلم (١٧).

(٣) رواه مسلم (١٨).

إخباره ﷺ عن الدجالين والكذابين

ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة، وعند مسلم عن جابر بن سمرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا دجالا كلهم يزعم أنه نبي**»[(١)]، وعن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا منهم مسيلمة والعنسي والمختار، وشر قبائل العرب بنو أمية وبنو حنيفة وثقيف**»[(٢)]، وعن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت للحجاج بن يوسف: أما إن رسول الله حدثنا: «**أن في ثقيف كذاباً ومبيراً**» **فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه**»[(٣)]، وقد تواتر خبر المختار بن أبي عبيد الكذاب الذي كان نائبًا على العراق وكان يزعم أنه نبي، وأن جبريل كان يأتيه بالوحي، وقد قيل لابن عمر وكان زوج أخت المختار صفّية: إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه، قال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (سورة الأنعام: ١٢١).

وعن رفاعة بن شداد، قال: كنت ألصق شيء بالمختار الكذاب، قال: فدخلت عليه ذات يوم، فقال: دخلت وقد قام جبريل قبل من هذا الكرسي، قال: فأهويت إلى قائم السيف لأضربه، حتى ذكرت حديثًا حدثنيه عمرو بن الحمق الخزاعي، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أمَّن الرجلُ الرجلَ على دمه، ثم قتل رُفع له لواء الغدر يوم القيامة**» فكففت عنه[(٤)]، وقال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم..[(٥)]، وعن أبي النَّجود: ما بقيت لله حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج، وعن ابن طاووس: أن أباه لما تلقى موت الحجاج تلا قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٤٥).

---

(١) رواه البخاري، وعند مسلم (٧٢٠٢).
(٢) رواه البيهقي.
(٣) رواه مسلم (٦٣٧٨).
(٤) رواه أبو داود، وأحمد (٢٥٩٥٠).
(٥) رواه البيهقي.

والأحاديث في ظهور هؤلاء الدجالين كثيرة، وفي بعضها وقع أنهم ثلاثون بالجزم كما في حديث ثوبان، وفي بعضها أنهم قريب من الثلاثين، كما في حديث أبو هريرة، وقد خرج بعضهم في الزمن النبوي، وفي عهد الصحابة، ولا يزالون يظهرون، وليس التحديد في الأحاديث مراداً به كل من ادَّعى النبوة مطلقا، فإنهم كثير لا يحصون، وإنما المراد من قامت له شوكة وكثر أتباعه واشتهر بين الناس.

وقد ظهر في العصر الحديث ميرزا أحمد القادياني بالهند، وادَّعى النبوة وأنه المسيح المنتظر، وأن عيسى ليس بحي في السماء إلى غير ذلك من الادعاءات الباطلة، وصار له أتباع وأنصار، وانبرى له كثير من العلماء فردوا عليه وبينوا أنه أحد الدجالين، ومن هؤلاء الكذابين أربع نسوة، فقد رُوي عن حذيفة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: **«في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي»**[(١)].

ومن هؤلاء سجاح التي ادعت النبوة، وتزوجها مسيلمة ثم لما قُتل رجعت إلى الإسلام، كما رجع وتاب طليحة بن خويلد الأسدي وحسن إسلامه، والحمد لله رب العالمين.

□★●★□

(١) رواه أحمد (٢٢٢٦٩).

النبي ﷺ يحذر أمته الأعور الكذاب

لا يزال خروج هؤلاء الكذابين واحدًا بعد الآخر، حتى يظهر آخرهم الأعور الدجال، فقد روى الإمام أحمد عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم كسفت الشمس على عهده: «**وإنه والله لا تقوم الساعة، حتى يخرج ثلاثون كذاباً، آخرهم الأعور الدجال**»[(١)]، وكلمة الدجال، أصبحت علمًا على المسيح الأعور الكذاب، وسمي الدجال دجالاً، لأنه يغطي الحق بالباطل، أو لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه، وتمويهه، وتلبيسه عليهم، وفي حديث أنس رضي الله عنه قال ﷺ: «**وإن بين عينيه مكتوب كافر**»[(٢)]، وفي رواية: «**ثم تهجاها ك ف ر، يقرؤه كل مسلم**»[(٣)]، وفي رواية عن حذيفة.. «**يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب**»[(٤)]. وفي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة، خلق أكبر من الدجال**»[(٥)]، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «**الدجال يخرج من أرض بالمشرق، يقال لها خرسان**»[(٦)]، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال من يهودية أصبهان، معه سبعون ألفا من اليهود**»[(٧)].

وثبت أن الدجال لا يدخل أربعة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد الطور، والمسجد الأقصى، وأما ما ورد في الصحيحين[(٨)]، أن النبي ﷺ رأى رجلاً جعدًا قططًا أعور عينه اليمنى واضعًا يديه على منكبي رجل، يطوف بالبيت فسأل عنه؟ فقالوا أنه المسيح الدجال، فيجاب عنه، بأن منع الدجال من دخول مكة والمدينة، إنما يكون عند خروجه في آخر الزمان.

---

(١) رواه أحمد (١٩٣١٨).
(٢) رواه البخاري (٦٥٩٨).
(٣) رواه مسلم (٧٢٢٣).
(٤) رواه مسلم (٧٢٢٥).
(٥) رواه مسلم (٥٢٣٩).
(٦) رواه الترمذي (٢١٦٣).
(٧) رواه أحمد (١٢٨٦٥)، ومسلم (٧٢٤٩).
(٨) رواه البخاري (٥٤٥١)، ومسلم (٤١٩).

وأكثر أتباع الدجال، من اليهود والعجم والترك، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنساء، وفتنة الدجال أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة، وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة، التي تبهر العقول وتحير الألباب.

وقد ورد في الأخبار: «**أن معه جنة وناراً، وجنته ناروناره جنة**»، وأن معه أنهار الماء وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث، استدبرته الريح إلى غير ذلك من الخوارق، وهو لا يستطيع تكرار الأمر الخارق، كما أن أمارات عجزه وحدوثه موجودة فيه، لايستطيع إزالتها فهو مكتوب بين عينيه كافر، كما أنه أعور العين اليمنى، وعينه كعنبة طافية.

وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بقول: «**فإما أدركن أحد، فليأت النهر الذي يراه ناراً، وليغمص، ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه، فإنه ماء بارد**»[(١)]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال من خيار الناس، أو خير الناس، يخرج إلى الدجال من مدينة رسول الله ﷺ فيقول للدجال: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا، ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول (أي الرجل) والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم فيريد الدجال أن يقتله، فلا يسلط عليه**»[(٢)].

وللوقاية من فتنة الدجال: علينا أن نتمسك بالإسلام ونتسلح بسلاح الإيمان، وأن نتعوذ من فتنة الدجال، وخاصة في الصلاة، فقد روى مسلم[(٣)]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تشهد أحدكم، فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني**

---

(١) رواه مسلم (٧٢٢٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٩).

(٣) رواه مسلم (١٣٠١).

أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»، وروى الإمام مسلم، من حديث النواس بن سمعان، وفيه قوله ﷺ: **«من أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»**[(١)]، وفي الحديث: **«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال»**[(٢)].

ولا بد من الفرار من الدجال، والابتعاد منه، والأفضل سكنى مكة والمدينة، ونعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وهلاك الدجال يكون بباب لُدّ بفلسطين، روى الإمام أحمد والترمذي، عن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يقتل ابن مريم الدجال بباب لد»**[(٣)]، وبذلك تنتهي فتنته العظيمة وينجي الله الذين آمنوا من شره، وشر أتباعه على يدي روح الله، وكلمته عيسى بن مريم عليه السلام، ولله الحمد والمنة.

الأكاذيب الكونية في مجموع الفتاوى جـ (٤)

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أن باب الكذب في الحوادث الكونية، أكثر منه في الأمور الدينية، لأن تشوف الذين يُغلّبون الدنيا على الدين إلى ذلك أكثر، وإن كان لأهل الدين إلى ذلك تشوف، لكن تشوفهم إلى الدين أقوى، وأولئك ليس لهم من الفرقان بين الحق والباطل من النور ما لأهل الدين، فلهذا كثر الكذابون في ذلك، ونفق منه شيء كثير وأُكلت به أموال عظيمة بالباطل، وقُتلت به نفوس كثيرة من المتشوفة إلى الملك ونحوها.

ولهذا ينوعون طرق الكذب في ذلك، ويتعمدون الكذب فيه تارة بالإحالة على الحركات، والأشكال الجسمانية الإلهية، من حركات الأفلاك والكواكب والشهب

---

(١) رواه مسلم (٧٢٣٠).

(٢) رواه مسلم (٧٢٣٢).

(٣) رواه أحمد (٢٣٣٢٧).

والرعود والبروق والرياح، وغيـر ذلك، وتارة بما يحدثونه هم من الحركات والأشكال كـالضرب بالرمل والحـصا والـشعـير والقـرعة باليـد ونحـو ذلك، مما هو من جنس الاستقسام بالأزلام، فإنهم يطلبون علم الحوادث[1] بما يفعلونه من هذا الاستقسام بها، سواء كانت قداحًا أو حصصًا، أو غير ذلك مما ذكره أهل العلم بالتفسير.

وليس المقـصود ذكـر هذه الأمور، وسـبب إصـابتهـا تارة وخطئهـا تارات وإنما الغرض: أنهم يتعمدون فيها كـذبًا كثيرًا، من غير أن تكون قد دلت على ذلك دلالة، كما يتعمد خلق كثير الكذب في الرؤيا، التي منها الرؤيا الصالحة، وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبـوة، وكما كانت الجن تخلط بالكلمة تـسمعها من السـماء مائة كذبة، ثم تلقيها إلى الكهان.

ولهذا ثبت في صحيح مسلم، عن معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: **يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منًّا رجالاً يأتون الكهان، قال: «فلا تأتهم»، قال: قلت: منًّا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدهم»، قال: قلت ومنًّا رجال يخطون، قال: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»**، فإذا كان ما هـو من أحوال النبوة ومن أخبـار الملائكة، ما قد يتعـمد فيه الكذب الكـثير، فكيف بما هو في نفســه مضطرب لا يستـقر على أصل؟ فلهذا تجد عـامة من في دينه فساد يدخل في الأكاذيب الكونية، مثل أهل الاتحـاد، فإن ابن عربي في كتاب (عنقاء مغرب)، وغيره أخبر بمستقبلات كثيرة عامتها كذب.

وكذلك ابن سبـعين، وكذلك الذين استخـرجوا مدة بقاء هذه الأمـة من حساب الجمل من حـروف المعجم الذي ورثوه من اليهود ومن حـركات الكواكب الذي ورثوه من الصائبة، كـما فعل أبو نصر الكندي وغـيره من الفلاسفة، وكـما فعل بعض من تكلم في تفسـير القرآن من أصـحاب الرأي، ومن تكلم في تأويل وقـائع النساك من

---

(١) الأمور المستقبلية.

المائلين إلى التشيع . . قال: وقـد رأيت من أتباع هؤلاء طوائف يدَّعون أن هذه الأمور من الأسـرار المخـزونة والعلوم المصـونة، وخـاطبت في ذلك طوائـف منهم، وكنت أحلف لهم أن هذا كـذاب مفـترى، وأنـه لا يجري من هذه الأمـور شيء، وطلبت مباهلة بعـضهم لأن ذلك كان متعلقا بأصـول الدين، وكانوا من الإتحادية الذين يطول وصف دعاويهم.

وقال: ومن أمـثلة ذلك: أنك تجـد عند الرافضـة المتشيـعة ومن أخـذ عنهم من دعوى علوم الأسـرار والحقائق، التي يدَّعـون أخذها عن أهل البـيت، إما من العلوم الدينيـة، وإما من علم الحـوادث الكائنة، ما هو عندهم من أَجَلِّ الأمـور التي يجب التواصي بكتـمانها، والإيمان بما لا يعلم حقـيقته من ذلك، وجمـيعها كـذب مختلق وإفك مـفترى، فـإن هذه الطائفـة الرافضـة من أكثـر الطوائف كذبا، وادعـاء للعلم المكتوم، ولهذا انتسبت إليهم الباطنية والقرامطة.

وأما الكذب والأسرار التي يدعونها عن جعفر الصادق، فمن أكبر الأشياء كذبًا، حتى يقال: ما كُـذِبَ على أحد ما كُذِبَ على جعفر ﷺ، ومثل كـتاب (رسائل إخوان الصفـا)، الذي صنفه جماعـة في دولة بني بويه ببغداد وكـانوا من الصابئة المتفلسـفة المتحنفة، ومثل ما ذكره بعض العامة، من ملاحم ابن غنضب ويزعمون أنه كان معلما للحـسن والحـسين، وهذا شيء لم يكن في الوجـود باتفـاق أهل العلم، ومـلاحم ابن غنضب، إنما صنفها بعض الجهال في دولة نور الدين ونحـوها، وهو شِعر فاسد يدل على أن ناظمه جاهل، وكذلك عامة هذه الملاحم المروية بالنظم ونحوه، عامتها من الأكاذيب.

وهكذا فالكذب كثير فاحذره على نفـسك،واحذر إتيان العرافين والكهان وقارئي الفنجـان والكف وضـاربي الودع ومدعي مـعـرفة الغـيب ممن يتكلمـون في الحظوظ والحوادث المستقبلية، فهم كذبة وفجرة، حتى وإن صدقوا مرة، فهؤلاء يصدق عليهم ما يقال في الشيطان،«صدقك وهو الكذوب»، وهم من أوليائه.

وكـذلك لابد من الحـذر من أهل الفلك الذين يقـولون عن الزلازل لن تحـدث بالليل أو لن تتكرر مرة ثانية، ومـا شابه ذلك من صور الرجم بالغيب: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (سورة لقمان: ٣٤).

واحذر أيـضًا الرجـوع لأهل البدع، من المتـصوفـة، والشيـعة، ومن كـان على شاكلتهم، فالواحد منهم لا يتـورع من أن يقول: حدثني قلبي عن ربي، وما هي إلا وساوس شيطانية، واعتصم بالوحي والسنة الصادقين، وارجع لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ أجمعين.

كذب «قبر الحسين بمصر» وغيره وترويج الحكايات المكذوبة

تفنن البعض في زخرفة المشاهد والقبور، وصرفوا العبادة للمقبورين من دون الله كالحلف والذبح والنذر والدعاء والاستغـاثة، ومن عجب الأمر أن بعض هذه المشاهد التي تشد لهـا الرحال!! وتقصـد بالعبادة، وتـصنع لها الموالد قد تكون خـالية كقـبر الحسين، أو دُفن بها يوناني كقبر العـوَّام بمرسى مطروح، فقد ذكروا أنه انكسرت بهم السـفينة، ووجـدوا هذا الرجل طافيًـا على لوح خشـبي فأخـذوه وأقامـوا له مقـامًا وحكايات المشاهد كثيرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيـمية: في كتاب (اقتضاء الصراط المسـتقيم): فمن هذه الأمكنة: ما يظن أنه قبر نبي أو رجل صـالح وليس كذلك أو يظن أنه مقام له وليس كذلك.. فـمن ذلك عدة أمكنة بـدمشق مثل: مـشهـد لأبي بن كعب خـارج الباب الشـرقي، ولا خلاف بين أهل الـعلم: أن أبي بن كعب إنمـا توفى بالمدينة، ولم يمت بدمشق والله أعلم قبر من هو؟ لكنه ليس بقـبر أبي بن كعب صاحب رسول الله ﷺ

بلاشك، وكذلك مكان بالحائط القبلي، بجامع دمشق، يقال: إن فيه قبر هود عليه السلام، وما علمت أحدًا من أهل العلم ذكر أن هودًا النبي مات بدمشق، بل قد قيل: إنه مات باليمن، وقيل: بمكة، فإن مبعثه كان باليمن، ومهاجره بعد هلاك قومه كان إلى مكة، فأما الشام فلا هي داره ولا مهاجره، فموته بها والحال هذه مع أن أهل العلم لم يذكروه، بل ذكروا خلافه في غاية البعد.

وكذلك مشهد خارج الباب الغربي من دمشق يقال: إنه قبر أويس القرني، وما علمت أن أحدًا ذكر أن أويسًا مات بدمشق، ولا هو متوجه أيضًا، فإن أويسًا قدم من اليمن إلى أرض العراق، وقد قيل إنه قتل بصفين، وقيل: إنه مات بنواحي أرض فارس وقيل غير ذلك، وأما الشام، فما ذكر أحد أنه قدم إليها، فضلاً عن الممات بها.

ومن ذلك أيضًا: قبر يقال له قبر أم سلمة زوج النبي ﷺ، ولا خلاف أنها رضي الله عنها ماتت بالمدينة لا بالشام، ولم تقدم الشام أيضًا، فإن أم سلمة زوج النبي لم تكن تسافر بعد رسول الله ﷺ.

قال ابن تيمية: ومن ذلك مشهد بقاهرة مصر، يقال: إن فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما، وأصله المكذوب أنه كان بعسقلان مشهد، يقال: إن فيه رأس الحسين، فحمل فيما قيل الرأس من هناك إلى مصر، وهو باطل باتفاق أهل العلم، لم يقل أحد من أهل العلم: إن رأس الحسين كان بعسقلان، بل فيه أقوال ليس هذا منها فإنه حمل رأسه إلى قدام عبيد الله بن زياد بالكوفة، حتى روى له عن النبي ﷺ ما يغيظه، وبعض الناس يذكر أن الرواية كانت أمام يزيد بن معاوية بالشام.

ولا يثبت ذلك فإن الصحابة المسمين في الحديث، إنما كانوا بالعراق، وكذلك مقابر كثيرة لأسماء رجال معروفين، قد علم أنها ليست بمقابرهم، فهذه المواضع ليس فيها فضيلة أصلاً، وإن اعتقد الجاهلون أن لها فضيلة، اللهم إلا أن يكون قبرًا لرجل

مسلم فيكون كسائر المسلمين، ليس لها من الخصيصة ما يحسبه الجهال، وإن كانت القبور الصحيحة لا يجوز اتخاذها عيداً، ولا أن يفعل فيها ما يفعل عند هذه القبور المكذوبة، أو تكون قدراً لرجل صالح غير المسمى.

ومن هذا الباب أيضًا مواضع، يقال: إن فيها أثر النبي ﷺ أو غيرها، ويضاهى بها مقام إبراهيم الذي بمكة، كما يقول الجهال في الصخرة التي ببيت المقدس، من أن فيها أثراً من وطء قدم النبي ﷺ، وفي مسجد قبلي دمشق، يسمى مسجد القدم به أيضًا أثر يقال: إن ذاك أثر قدم موسى عليه السلام، وهذا باطل لا أصل له، ولم يقدم موسى دمشق ولا من حولها.. إلى أن قال: وأكثر ما تجد الحكايات المتعلقة بهذا عند السدنة والمجاورين لها، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

وقد يحكي من الحكايات التي فيها تأثير، مثل أن رجلاً دعا عندها فاستجيب له، أو نذر لها إن قضى الله حاجته، فقضيت حاجته، ونحو ذلك وبمثل هذه كانت تعبد الأصنام. ا.هـ.

وما أكثر صور الغلو والكذب الذي نُسج حول شيوخ الصوفية، وخصوصًا السيد البدوي، ويكفي مراجعة طبقات الشعراني، لترى كيف وضع السيد البدوي في السماء الرابعة!! وانظر لما يروجه السدنة من أنه حيٌّ في قبره، وكيف أصبحت الحلاوة حلاوة السيد، والبلد بلد السيد، والعجل عجل السيد، والمدد والبركة تُلتمس من السيد، وكيف كان البعض يباهي بأن عدد من يحضر يوم مولده، مثال عدد من يحج بيت الله الحرام!!.

وقد ذكر الشيخ عبد الحليم محمود أنه قبل تأليف كتابه ذهب يستأذن البدوي!! ولهذا وغيره تدرك لماذا نُهينا عن بناء المساجد على القبور، فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الجن:١٨) . فلا يخلق هو سبحانه ويُعبد غيره، ولا يرزق هو ويُشكر سواه، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (سورة مريم:٩٣-٩٥). وقد كانت الآيات تتنزل على رسول الله ﷺ آمرة له: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (سورة الأعراف:١٨٨). ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (سورة الأعراف:١٩٤). ﴿وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾ (سورة الفرقان:٣). فكيف يملكونه لكم: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (سورة الزمر:٢-٣).

لا يقال: فلان شهيد أو مرحوم أو مغفور له

من عقيدة أهل السنة والجماعة عدم القطع لأحد بخاتمة، إلا من قطع الشرع بخاتمته، فأبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ في الجنة، وفرعون وأبوجهل وأبو لهب في النار، لورود النصوص بذلك، وذلك لأن الأعمال بالخواتيم، ولا يعلم الخاتمة إلا الله تعالى، وقالوا: نرجو للمحسن الثواب، ونخاف على المسيئ العقاب، فإذا كان العبد يعمل بطاعة الله، ومات على ذلك رجونا أن يكون من أهل الجنة، وإذا كان يعمل بالمعاصي والسيئات خفنا أن يكون من أهل النار.

والمسلم قد يرتد على عقبه القهقري، والكافر قد تلحقه التوبة قبل الممات، وفي الحديث: **«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»**[١].

والفارق كبير بين أن يدعو للميت بالمغفرة والرحمة، وهذا هو المشروع، وبين أن نقطع ونجزم بأنه مغفور له ومرحوم، وكأن لنا بذلك عهداً من الله!! ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (سورة الجن:٢٦-٢٧).

---

(١) رواه البخاري (٢٦٨٣).

وكذلك الأمر بالنسبة للشهيد فلا خلاف بين جمهور الفقهاء، في أن المقتول في ساحة المعركة، لا يُغَسَّل ويُدفن في ملابسه، باعتبار الحكم الظاهر على هؤلاء، وقد يُطلق عليهم اسم الشهداء على سبيل العموم والجملة، ويُراد حينئذ بهذا الوصف الحكم الظاهر المبني على الظن الغالب، أما الجزم القاطع بإثبات الشهادة لإنسان بعينه فلا يصح ولا يجوز.

وإليك بعض الروايات: التي تَدُلُّك دلالة واضحة على ما نقول، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل ليُذكر، والرجل يُقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو بعينه في سبيل الله»**[1].

وإذا كان شرط قبول العمل، نية وصحة، أو إخلاص ومتابعة، فالنية لا يعلمها إلا الله، وأما ما ثبت من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهوده لجماعة من الصحابة بالجنة، أو الفوز بالسعادة، فهذا مما عَلِمَهُ النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي، لقوله تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ (سورة النجم: ٤).

ومما يُؤسف له أن هذه التسمية شاعت على ألسنة الكثيرين، حتى صارت هذه التسمية يرددها العلمانيون اللادينيون، وغيرهم على هلكاهم كالشيوعيين والنصارى والمنحرفين، فهل كان قتال هؤلاء لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى؟!!.

ومن المعلوم أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان لله خالصًا وابتُغِيَ به وجهه، قال تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٩). وقال سبحانه: ﴿ **وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (سورة النساء: ٧٤).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦/ ٢٨١٠)، ومسلم (٤٨٣٦).

وعن أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها، في قصة مرض عثمان بن مظعون الذي مات فيه، قال رضي الله عنها: فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب ـ كنية عثمان ـ فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: **«وما يدريك أن الله أكرمه؟»، فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»** قالت: أم العلاء: **فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً»**[1].

وقد قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك قبل أن ينزل عليه قوله سبحانه: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ (سورة الفتح:٢). وعثمان بن مظعون رضي الله عنه كان من المهاجرين، وكان من المرابطين، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال لأم العلاء عن عثمان بن مظعون: **«وما يدريك أن الله أكرمه؟»**، فهل ندري ذلك بالنسبة لأبي العباس المرسي وإبراهيم الدسوقي والسيد البدوي؟!.

قال صاحب (العقيدة الطحاوية) (١/ ١٧): ونرجو للمحسنين من المؤمنين، أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم. ا.هـ.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: **«دُعيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه،** فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»**[2].

قال النووي ـ رحمه الله ـ (١٦/ ٢٠٧): نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير دليل، أو قال ذلك قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة. ا.هـ بتصرف.

---

(١) رواه البخاري (١١٦٦).

(٢) رواه مسلم (٦٦٤٤).

وعن أبي الجعفاء السلمي قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان من خطبته أنه قال: «**وأخرى تقولونها في مغازيكم: فلان شهيد، أو مات فلان شهيداً، وعسى أن يكون قد أثقل عجز دابته، أو أردف راحلته ذهبًا أو ورقًا، فابتغى الدنيا، فلا تقولوا ذلك، ولكن قولوا كما قال رسول الله ﷺ: «من قتل أو مات في سبيل الله، فهو في الجنة»**»[1].

وعن هذيل بن شرحبيل قال: خرج ناس فقتلوا، فقالوا: فلان شهيد، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**إن الرجل ليقاتل للدنيا، ويقاتل ليعرف وإن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد**»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ (سورة الحديد:١٩)[2]، قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٩٠): المراد النهي عن تعيين وصف واحد بعينه بأنه شهيد، بل يجوز أن يقال ذلك عن طريق الإجمال.

وذكر أن النبي ﷺ لا يقول ذلك إلا بوحي، وأما غيره فلا يمكنه ذلك لانقطاع الوحي والرسالة والنبوة بعد نبينا محمد ﷺ وهو خاتم النبيين لا نبي بعده.

ونحن بحاجة لضبط الألفاظ والمصطلحات، وإلا فما أكثر صور الكذب والتمييع عندما نصف بالشهادة من ليس أهلا لها، أو نضيف هذه الكلمة المستحسنة إلى غيرها من المعاني، على سبيل التدليس والتلبيس، كقول البعض: شهيد العروبة، وشهيد الوطن، وشهيد الواجب، أو المبدأ، والقضية، وحينئذ فلا غرابة لو وصف أبو جهل وفرعون وكفار قريش الذين كانوا يدافعون عن دين الآباء والأجداد.. أنهم شهداء!! قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ (سورة هود:١٧).

وقال النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[3]، فعلينا أن نُسمي

---

(١) رواه الحاكم، وحسنه الحاظ بن حجر.

(٢) رواه الحاكم، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) سبق تخريجه.

الأشياء باسمها، ولنعلم أن العملة الزائفة لا تروج على الله؛ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة النمل: ٦٤).

الكذب الإعلامي
وسحر بني إسرائيل الحديث

على حد قول بعض الإعلاميين، فإن الإعلام لا يؤثر في الرأي العام فقط، بل هو يخلق الرأي العام ويوجهه، وإذا كانت هذه الأمة مستهدفة من قِبَلِ أعدائها، هذه العداوة التي اتخذت أشكالاً شتى: سياسية واقتصادية وعسكرية وفكرية، وبدأت ولم تنته بعد.

فالواجب علينا أن ننتبه، وخصوصًا وقد أصبحت الدنيا أشبه بقرية صغيرة لسهولة وسرعة الاتصال بين أقطار الأرض، والحرب النفسية والغزو الفكري، من أعظم صور الخطر التي تواجه المسلمين، والإعلام يلعب دورًا مهمًا في ذلك، يؤدي إلى غياب الراعي وفساد الرعية.

لذا لزم التنبه بمزيد من الوعي إلى كل ما يذاع وينشر من دسائس الفكر الخبيث، والغزو الإعلامي المركز، الذي يمارسه المتلاعبون بالعقول في سباقهم المحموم على احتلال زوايا العقل عند أكبر عدد من الناس، في شكل ينم عن استهتار بعقول البشر، واستخفاف بالإنسان، وينم عن سخرية لا حد لها عن طريق الكذب الإعلامي المتواصل، والدجل السياسي بدون حدود، وكل ما يرافق ذلك من تلون وتمويه، أجادوه حق الإجادة في محاولة لاستغباء عامة الناس، واستغلال طيبتهم وعفويتهم الصادقة، كما يقول عايد الشعراوي في كتابه (التلويث الفكري والإعلامي في العالم الاسلامي) يقول: وإذا كان موجهوا أبواق الإعلام يكذبون، ويعلمون أنهم يكذبون، فمن واجب كل مسلم أن يعرف أنهم يكذبون، وأن لا يتوقع منهم أن يصدقوا طالما

بقيت هذه الأبواق بيد هذه النوعيات ومسخرة كليًا لخدمة أسياد هذه الأبواق، وأصبحوا يستخدمون أسلوب الإعلان مدفوع الثمن، وليس أسلوب الإعلام.

إضافة إلى ما يرافق ذلك من دعاوة رخيصة مليئة بالمبالغات والتشويق، وكأنه يخاطب الغريزة بدل مخاطبة العقل، وكأنه يسوق سلعة تجارية حينما يسوق مخططاته السياسية ومنهج الحكم الذي يمارس. أهـ.

وفي الأنظمة التي تستخدم المبدأ المكيافيللي، وهو الغاية تبرر الوسيلة، نهجًا للحكم والسيطرة فإن ذلك يستلزم إعلامًا مكيافلليا يخدم تلك السياسة، فالسياسة والإعلام لا يفترقان، تلاعبًا بالآمال العراض، وبثًا للأوهام الخداعة، وقلبا للحقائق وتشويهها لها، والتلفزيون كأداة إعلامية يطلق عليه علماء النفس في الغرب (ثالث الوالدين)، والراديو لا يقل خطورة عنه، وقس على ذلك الجرائد والمجلات.

ومن الأساليب التي يتبعها الإعلام الموجه لتوجيه الرأي العام، أسلوب التحضير المسبق لتهيئة الأجواء لتقبل المسائل، ثم لمعرفة ردود فعل جمهور الناس عليها، وأسلوب الترويج الحماسي، حيث يتم التركيز على إثارة المشاعر الجاهلية مثل: أنتم أحفاد الفراعنة، أنتم تنتمون إلى حضارة عمرها ستة آلاف سنة، حتى تحدث هذه النعرات ما يشبه السحر في سامعيها خصوصا العناصر الشابة المراهقة.

كما يستخدمون أسلوب الاستعانة بآراء وتصريحات أشخاص ذوي نفوذ وشهرة، واستصدار فتاوى مؤيدة كما فعلوا في الترويج للاشتراكية، والسلام المؤبد مع اليهود، كما تلجأ السلطات الحاكمة في كثير من البلدان إلى إجراء استفتاءات مزورة لإيهام البسطاء، بأن مشروعهم يحظى بالرضى العام، ثم هم يستخدمون النكبات والكوارث والمناسبات الدينية والوطنية والأعياد للدعايات المغرضة لأنظمة الحكم، وهم يجيدون فن ركوب الموجة، واستغلال الدين والمشاعر الدينية، ولأجل تأدية أغراضهم المشبوهة، يستعملون أسماء الشخصيات البارزة، ويعقدون المؤتمرات الصحفية

والندوات العامة، ويفتعلون المناسبات التي تشد الأنظار كمناسبة تاريخية أو انتصارات وهمية، وهذا الذي ذكرناه يتفاوت من بلد إلى آخر.

ثم لو انتقلنا للسياسات المتبعة لإلهاء الرأي العام وترويضه، سنجد على سبيل المثال: سياسة الإغراق بالمشاكل الحياتية اليومية، حتى لا يفكر الناس إلا في رغيف الخبز وما شابه ذلك، وينصرفون بذلك عن إقامة واجب العبودية لله في الأرض.

ومن هذه السياسات، سياسة الإلهاء بالرياضة والنشاطات الشبابية، بحيث تصبح هدفاً وغاية ومضيعة، حتى قال البعض: إن إلهاء الشعب بمباريات كرة القدم والمصارعة والأفلام والمسلسلات الجنسية والمغامرات على الطريقة الأمريكية لا يورث إلا الجهل والقهر وبلادة الحس عند المواطن، وكذلك سياسة الإلهاء بنعيم الدنيا الزائل، وكل مظاهر الترف وفتح سبل المنافسة على الدنيا بحيث يستحكم هوس جمع المال في عقول هذه الأجيال ولا يجد الراكض متسعا من الوقت للتفكير في هموم أمته، ولا المساهمة في إنقاذها.

ثم تأتي سياسة كم الأفواه، بحيث يصبح لسان الحال والمقال يردد: الحيطان لها ودان.. عايزين نأكل عيش.. مش عايز أروح اللومان... ويلجأ الإعلام أحيانا إلى سياسة التنفيس حتى لا يتولد عن الاحتقان والكبت انفجار أو ثورة، كما يحدث أيضًا في المسلسلات والأفلام والمسرحيات والتصريحات والأحزاب، مع مراعاة عدم تعدي الخط الأحمر، حتى لا ينقلب السحر على الساحر، ويصبح الحاكم الذي يجيد اللعبة الديمقراطية هو الخصم، والحكم في نفس الوقت وكثيراً ما يتخذون كبشًا للفداء عقب هزيمة عسكرية أو فضيحة سياسية، وقد تلجأ النظم إذا اشتمت رائحة الخطر، إلى تعطيل بعض الصحف واتهامات بالتآمر والقيام بحملات التشهير الإعلامية اللازمة لتغطية الحدث، وهم يركبون الموجة تارة. وينحنون لها تارة أخرى، بما يحقق مصالحهم المزعومة ويدفع عنهم الشر الذي يرتقبونه، فإذا مالت الريح مال حيث تميل

وقد يرتدون جلد الثعلب تارة والتماسيح تارة أخرى، ويراهن بعضهم بعضا على ظاهرة النسيان عند الشعوب، ويبنون عليها الكثير من الخطط والمشاريع الإعلامية، وارتداء قميص عثمان من أهم هذه السياسات الإعلامية، كاستغلال قضية فلسطين وتحرير القدس، وحرب أفغانستان، التي يتمسحون بدعمها للمزايدة والتقرب إلى الناس في الوقت الذي يلتقون فيه سراً مع زعماء اليهود، ويتفقون معهم على كيفية حماية الحدود من هجمات المخربين!!، وأحيانا يلصقون كل عيوبهم وصور فشلهم وقصورهم بإسرائيل، أو بأمر آخر يكرهه الناس، ويناصبونه العداء مثل الاستعمار والصهيونية و«كمب ديفيد».

وتأتي بعد ذلك سياسة العصا والجزرة، فمن لم يقبل الجزرة والعبودية الذليلة لهم، سيظهرون له العصا، وكل هذه المراودات تسببها وتحللها حملات إعلامية مكثفة لتسهيل التنفيذ، وهكذا تحول الإعلام من أداة لنشر الحق والعدل والتُّقَى والصلاح إلى وسيلة للكذب والخداع والتضليل.

انتشار الكذب

نرى الآن بأعيننا ونسمع بآذاننا سطوة الكذب وشهرته، حتى لم يترك طبقة ولا صنعة إلا وذاع فيها أمره، ودخل البيوت وتشعب بين أفراد الأسرة كما تفشى بين الجماعات، حتى أن الأب والأم ليداعبان أطفالهم بالكذب على سبيل الفكاهة والمداعبة، ثم اعتُبِرَ الكذب فوق ذلك من ضروريات الحياة، فالتاجر والصانع يرون أن بضاعتهم تكسد إذا لم تروجها الأَيْمَان الكاذبة، والكثرة تعتبر تارك الكذب من أصحاب الغفلة، ويقيسون مقدار الذكاء بدقة التفنن فيه، ولا يخجلون إذا ما انكشف الأمر، وقد يتعلل البعض بأقوال من إيحاء الشيطان، أيسرها: أن الكذب للمصلحة جائز، ولم ينج من هذا المرض غني ولا فقير ولا عظيم ولا حقير، يستعمل الغني والوجيه الكذب للتهديد والتهويل، ويستعمله الفقير والصغير للمكر والخداع والتملص

من جبروت الأغنياء والزعماء، وخاصة في المدح والإغراق في الإشادة بفضل من لا يستحق إلا الإهانة والذم، وغير ذلك في هذا الشأن كثير متشعب الأطراف، وليس نصيب الأمانة بأحسن من نصيب الكذب.

فقد أخذت الخيانة بالقلوب والعقول وتفتقت لها الأذهان والحيل وكل ذلك أزاح الإيمان عن موضعه، وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: **«أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة»، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، قال: «ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت[•] ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل[•] كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً[•] وليس فيه شيء ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه عليَّ دينه، لئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليَّ ساعية، وأما اليوم فما كنت لأبايع إلا فلاناً وفلاناً»**[1].

□★•★□

(١) رواه مسلم (٣٦٠).

(•) الأثر اليسير.

(•) أن يكون بين الجلد واللحم ماء.

(•) مرتفعًا.

هكذا تتربى الأجيال على النفاق

النشأة السوية تحتاج لفضل من الله ورحمة وخصوصًا في أوقات الغربة هذه، فقلما تجد على الخير أعوانًا، فلو نظرت لكثير من الأسر لوجدت أن الآباء يربون أبناءهم على الكذب بلسان الحال والمقال، وإلا فما الذي يُنتظر عندما يقول الأب لابنه إنْ سأل أحد عني، فقل له: أبي غير موجود، وهو لم يخرج من المنزل؟! ويرد الابن بفطرته على السائل، ويقول له: أبي يقول لك هو غير موجود!. فلو انتقلت إلى الإعلام، والتعليم، والشارع، والأقارب، والجيران، لوجدت أن المشكلة قد ازدادت تعقيداً، فهناك جهات عديدة تقوم بتربية الأبناء ويتفاوت تأثيرها فيهم.

ويسوق عمرُ الأشقر قصة في كتابه (مواقف ذات عبر) ليوضح بها كيف تتربى الأجيال على النفاق؟ فيقول: «الدرس الناجح، هو الذي يبدأ بالتلميذ وينتهي بالتلميذ، الدرس الناجح هو الذي يعتمد على التلميذ»، هكذا كان يقرر المفتش، وهو يفتتح الدورة التمهيدية في أول العام الدراسي، فقال أحد المدرسين: ولكن لا يمكن أن يطبق ذلك في كل الموضوعات، وفي كل فروع المادة، فالقصة التي تُحكي للتلاميذ لا يمكن أن تُحكى بطريق توجيه الأسئلة إليهم، بل تعتمد على الأسلوب الإلقائي، فأصر المفتش على رأيه، فطالب المدرسُ المفتشَ بأن يريهم ذلك عمليًا من خلال درس يلقيه، فما كان من المفتش إلا أن أمر المدرس المعترض بتحضير درس موضوعه: قصة تستخلص بطريق الأسئلة من الطلبة، فحاول أن يعتذر ولكن المفتش أصر ولا سبيل للرفض.

لقد كان هذا المفتش معروفًا بين المدرسين، إذ لم يكن يردعه عن فعل ما يريد، دين ولا خلق، مع أنه مفتش دين ولغة عربية، ولم يكن يتوانى عن رفع تقرير سيء عن مدرس قدير لأنه لم يستجب لما يريد منه، وأخذ المدرس يلوم نفسه ويبكتها(•):

(•) يبكتها: يوبخها.

ألم يكن يسعه أن يستمع وينصت كما يفعل الآخرون؟!! ألم يكن بمقدوره أن يجامل ويثني على عبقرية المفتش وفصيح عبارته كما يفعل المنافقون؟ ولكن ما السبيل؟.

إن تنفيذ طريقة المفتش مستحيلة، وعدم تنفيذها يعني أن نظرية المفتش فاشلة، والويل له إن كانت نظريته كذلك.

وأخيرًا عزم أمرًا، دخل الفصل وألقى على مسامع الصغار قصة وناقشهم حتى وعوها واستوعبوها ثم فهمهم خبره مع المفتش وطالبهم بأن يتناسوا أنهم سمعوا القصة منه، طالبهم بالكتمان حتى يبدو وكأن القصة تُدرسُ للمرة الأولى حين يأتي المفتش في درس قادم، وأرسل الأستاذ أكثر من زميل له إلى الفصل يختبر التلاميذ، وفهم التلاميذ الدور ووعوه، وجاءت الحصة الموعودة، وأخذ الأستاذ يوجه الأسئلة والتلاميذ يجيبون بلباقة، وتكاملت القصة من خلال الحوار، والمفتش مشدود، لقد نجحت نظريته وثبت خطأ المدرس المعترض وحاول أن يختبر المفتش التلاميذ، ولكن التلاميذ كانوا عالمين بما ينبغي أن يُقال فلم يبوحوا بالسر، وحافظوا على الكتمان، وخرج المفتش يثني على مهارة الأستاذ، والأستاذ يثني على نظرية المفتش، وهكذا يتربى أجيال من الطلبة على النفاق.

وهكذا يُذِلُ الحرصُ أعناقَ الرجال، كنا نود لو أن هذا المدرس ثبت على موقفه، وصدع بكلمة الحق، وتحمل في سبيلها الأذى لوفر على نفسه الجهد الكاذب، والمظهر الخادع، ولصان وجهه أمام تلامذته، ولحافظ على الأمانة، ولعرف هذا المفتش بأن هناك رجالاً لا يحنون رؤوسهم إلا لربهم، ولكن . . .

☐★●★☐

علاقة الكذب بالنفاق

كما أن الصدق شعبة من شعب الإيمان، وخصلة من خصال أهل اليقين والإحسان، فكذلك الأمر بالنسبة للكذب فهو خصلة من خصال أهل الكفر والنفاق، ومن تلبس بهذه الخصلة الذميمة واستحكمت على قلبه خِيفَ عليه أن يؤول أمره إلى النفاق الاعتقادي «النفاق الأكبر» ـ كنفاق عبد الله بن أبي بن سلول ـ بحيث يُظهر الإيمانَ ويُبطن الكفرَ، وكما أن شعب الإيمان تسمى إيمانًا، فكذلك شعب الكفر تسمى كفرًا، فالصدق إيمان والكذب كفر ونفاق، وليس معنى ذلك أن من كذب يكون كافرًا خارجًا من الملة أو منافقًا، ولكن يُخشى عليه من أن ينجرَّ إلى ذلك.

وهناك كفر دون كفر، وشرك دون شرك، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، ونفاق دون نفاق، يقول الإمام ابن القيم في رسالة (صفات المنافقين): «أما النفاق فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئًا منه وهو لا يشعر، فإنه أمر خَفِي على الناس، وكثيرًا ما يخفى على مَن تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد، وهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو: أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن، منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه... رأسُ مالهم: الخديعةُ والمكرُ، وبضاعتهم: الكذب والختر[1]، وعندهم العقل المعيشي إن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة البقرة:٩). قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلبوهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إرادتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه

(١) الختر: الغدر.

الأطباء العارفون، ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٠)، لكل منهم وجهان: وجه يلقي به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون، ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٤).

أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، يتعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا يستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلاً... مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.. يعجب السامعَ قولُ أحدهم لحلاوته ولينه، ويُشهِدُ الله على ما في قلبه من كذبه، ومينه فتراه عند الحق نائماً، وفي الباطل على الإقدام.

فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٤). تبا لهم[1] ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان، فالقوم في شأن، وأتباع الرسول في شأن.. تسبق يمينُ أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه، فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه، وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المنافقون: ٢).

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: زرع النفاق ينبت على ساقيتين ساقية الكذب وساقية الرياء، ومفرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة، فإذا تمت هذه الأركان الأربع، استحكم نبات النفاق وبنيانه، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هارٍ، فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر وكُشف المستور، وبُعثِر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق، أن حواصله التي

---

(١) أي: (هلاكا لهم).

حصلها كانت كالسراب يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية والفاحشة في فجاجهم فاشية، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل، وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم وكانت آذانهم واعية.

فهذه والله أمارات النفاق، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية، إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صَدَفوا[1]، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان والخزى والخسران، فلا تثق بعهودهم ولا تطمئن إلى وعودهم فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ (سورة التوبة: ٧٥-٧٧).

الكذب والنفاق في السياسة والحكم

النفاق ضرب من ضروب الكذب، والكذب غدا عنصرا من عناصر الحياة في جميع أشكالها وألوانها، والكذب أنواع وفنون يتصاعد بعضها فوق بعض، من التافه اليسير إلى الخطر العسير.

ويمتاز النفاق: بأنه ينحط إلى دركات الكذب السفلى ويلف في طياته أشتاتًا من الجبن والصلف والخسة والصفاقة ويدعو إلى الحقد والحسد والضغينة ويتفنن في إخراج المآسي المروعة من الخبث والدهاء والمكر السيء وأكل الحقوق، وليس من الغرابة في شيء أن نقول بأن الكذب أصبح عنصرًا أساسيًا من عناصر الحياة.

---

(١) أي: (انصرفوا).

فالواقع أن العالم يجري على أسس راسخة من الكذب والنفاق، ليس في ذلك شيء كثير ولا قليل من المبالغة أو الخيال، وقد تكون هذه الحالة صعبة على النفس، وقد تكون موجبة للأسى ولكنها على أي حال الحقيقة والواقع.

ومع وضوح سبل الخير والحق، فإن القاعدة الغالبة على الناس أن يسيروا في سبل الشر والضلال والباطل، وهم كما وصفهم ربهم وخالقهم: ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ (سورة يوسف:١٠٣). وتمت كلمة ربك: ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ (سورة هود:١١٩). ويتسلط الكذب والنفاق بصفة خاصة على الأمور المهمة الخطيرة كهذه التي تتعلق بالجيوش وأعمال الحرب، وما يتعلق بالحكم وأعمال السلطان، ولو تأملنا صحائف التاريخ في جميع العصور لوجدنا أن الأحداث الحاضرة تجري كلها على قواعد عتيدة مشتقة من النفاق.

وما أعمال الجاسوسية وأقلام المخابرات، إلا ضروب معقدة مرتكزة على النفاق في نطاقات واسعة ونظم مدروسة مرتبة، وقد أصبحت الحروب الخفية بين أقلام المخابرات أشد وأنكى من حروب الجيوش البرية والبحرية والجوية والنجاح فيها أو الفشل أشد أثرًا وأبعد نتيجة، وأما أعمال الحكم والسلطان ومقتضيات الاجتماع بصفة عامة فمجال النفاق فيها واسع الأطراف، وللكذب والشرور فيها صولات وجولات نرى ذلك واضحًا في ميدان السياسة والدبلوماسية بصفة خاصة، وما يعقد لها من هيئات ومؤتمرات، وما تلك الهيئات والمؤتمرات إلا معارض ومنتديات يستعرض فيها رجال السياسة والعمل والغاصبون والسفاكون ومن تبعهم منتهى ما وصل إليه العقل البشري من أفانين الكذب والنفاق وأساليب الخداع والدهاء والخبث مخلوطًا بالألفاظ المعسولة الجميلة ومصبوغًا بألوان مستعارة من الحق ومختبأ تحت أستار جميلة من العلم والأدب والبلاغة والخطابة، ولذلك نراها ابتدعت للأوضاع الباطلة ألوانًا زاهية؛ فسمت الفتح والغزو استعمارًا، فلما بهت اللون صبغت له كلمات الانتداب والوصاية

واستعملت ألفاظ التعليم والتمدين والتدريب للحكم الذاتي تغطية لمعاني النهب والسلب، ونظرة سريعة على ما تفعله الأمم المتحدة وأمريكا في مشكلة العراق والصومال ومقارنة ذلك بموقفها من قضية فلسطين والبوسنة، ثم شعاراتهم البراقة بمعاني حقوق الإنسان وحق تقرير المصير والسلام العالمي. . . لتعلم مدى الخداع والكذب الذي وصلت إلى هذه الهيئات المشبوهة، وتجري الأمور في مسائل الحكم والإدارة على هذا النمط حيث تنشأ ألفاظ جميلة براقة تضم طرفًا من الحق وتخفي أطرافًا من النفاق والكذب يطلق عليه الآن اسم الكياسة والدهاء ودقة الإدارة.

ماكيافيلي وصناعة النفاق والكذب في الحكم

الكذب والنفاق ألفاظ مكروهة مرذولة لا يتعامل الناس بها وإن تعاملوا بمدلولها، ولا يذكرونها إلا ومعها أنماط من الزجر البالغ للتباعد عنها والإشادة بهدى الصدق والنجاة به، بيد أن قاعدة واحدة اضطرد العمل بها عند كل من تباعد عن دين الله وهي نبذ الفضائل واصطناع النفاق لبلوغ المآرب، ولا نجد أحدًا وصلت به الجرأة على الصراحة في هذا الشأن وتنبيه الناس إلى نبذ الفضائل إلا رجلاً إيطاليًا، لا يزال رجال السياسة إلى عصرنا الحاضر يتبعون تعاليمه ويهتدون بهديه، إذ يحض على عدم الاهتمام بالصدق والفضائل وذلك الكاتب هو نيقولا ماكيافيللي الذي ولد عام ١٤٦٩ وتُوفى عام ١٥٢٧ ميلادية يقول ماكيافلي في كتابه الأمير تحت عنوان «كيف يكون وفاء الأمراء» ما نصه: لا ينبغي للأمير (حاكم المقاطعة) الحذر أن يحفظ العهود إذا كانت ضد مصلحته، وما دامت الأسباب التي دعت للوعد قد انقضى عهدها، إذا كان الناس كلهم أخيارًا فإن القاعدة التي ذكرتها تكون لاشك سيئة، ولكنهم أشرار ولن يحفظوا لك عهدًا فلست مضطرًا لحفظ عهودهم، ثم إن الأمير لا يفقد حيلة شرعية يركن إليها إذا لم يف بوعده، وأن الأمثال في هذا الباب كثيرة تثبت أن السلم قد تزعزع مرارًا وأن الوعود قد نسيت تكرارًا بأمراء لا وفاء لهم، وأن الذين استطاعوا

من الأمراء تقليد الثعلب قد فازوا وانتصروا، ولكن من الضروري أن يخفي الرجل هذه الخليقة وأن يكون ماهرًا في فن التظاهر بغير شعوره، ثم إن الناس من البساطة بمكان وهم أصحاب حاجات وصاحبها أرعن مطيع فلا يعدم الخادع فريسته. . . ليس من الضروري أن يتصف الأمير حقيقةً بكل الفضائل التي سبق الكلام عليها ولكن من الضروري أن يذاع عنه الاتصاف بها، وإنني أجسر فأقول أن الإتصاف بكل تلك الفضائل خطر ولكن الظهور بالتحلي بها نافع، إنه من الخير لك أن تظهر بالتقوى والأمانة وحب الإنسانية والدين والإخلاص وأن تكون في الواقع كذلك ولكن ينبغي أن تكون متنبهًا بحيث إذا اضطررت للتحول إلى الصفات الأخرى كان ذلك بدون مشقة، وينبغي العلم بأن الأمير لاسيما الحديث لا يمكنه ممارسة كل تلك الخلال الموصوفة بالحسن لدى الرجال لأنه يكون في أغلب الأحيان مضطرًا للاحتفاظ بالملك فيعمل ضد الإيمان والإحسان والإنسانية والدين.

لذا ينبغي أن يكون له عقل سهل التحول والانتقال حسبما يقتضيه تقلب الأحوال وألا يترك صنع الخير ما استطاع وأن يكون قادرًا على صنع الشر إذا احتاج لذلك، وينبغي للأمير ألا يحرك لسانه بكلمة لا تدل على أنه متحلٍ بالخلال الخمس السالفة الذكر فلا يرى فيه الرائي، ولا يسمع منه السامع إلا الأمانة والعفة والتقوي وحب الإنسانية، وأهم تلك الصفات صفة التقوى، لأن الرجال يحكمون عادة بالنظرة لا بالخبرة وكل الناس ترى فيك مظاهرك وقليلون يلمسون حقيقتك وهؤلاء القليلون لا يستطيعون أن يقاوموا الكثيرين المحتمين بسلطة الأمير، فليعش الأمير وليحافظ على عرشه دون النظر في الوسائل، فإنها ستبقى على الدوام معتبرة شريفة يمدحها الكل، لأن العامة مأخوذون بالظواهر وبنتائج الأشياء والعلم لا يشمل إلا عامة، والقليلون من الخاصة لا يظهرون إلا عندما يفل الكثيرون أ.هـ.

وقد أجمع المؤرخون أو كادوا على أن اسم ماكيافيللي أصبح علمًا على كل سياسي شديد قوي العقل والقلب لا يقف به الشرف أو العفة أو هيبة الله دون اقتراف

أفظع الآثام لبلوغ الغاية، واشتق من اسمه مذهبًا في السياسة سمى ماكيافلزم يتضمن مبادئه التي ترتكز على النفاق والكذب.

يقول إبراهيم على سالم في كتاب النفاق والمنافقون: ولقد خفر ماكيافيلي القلوب المريضة أن تستغرق في أسباب مرضها وأن تسدر في غلوائها وأهوائها، جعلها ضحية لشهوة الحكم والسلطان وبعد أن كان الحكام ورجال السياسة يمشون في النفاق والكذب مشية الحذِر المترقب الوجل ويعتبرون أنفسهم خارجين عن حدود الدين إذا بهم يجدون من ماكيافلي مرشدًا يعلمهم أن البعد عن النفاق باسم الدين أو الحكم أو الخلق الحسن، وهم وحمق لا كياسة فيه ما دام أمر الملك يقتضي ذلك، وكأن تعاليمه كانت رقية من رقى إبليس مست أحد أغلاق جهنم فانفتح بمسها ألوف من أبواب الرجس يفور نتنها ويتصاعد لهيبها على ضحايا البشر.

النفاق سابق لماكيافلي

لقد كانت قصة النفاق في عهد رسول الله ﷺ قصة طويلة كأنها حلقات صراع بين الإسلام والنفاق، وقد حارب المنافقون النبي ﷺ حروبًا خفية مليئة بالدسائس والتجسس والتآمر وحاولوا أن يُؤلبوا عليه وعلى المسلمين أشتات الكافرين وضعاف النفوس ومرضى القلوب وقد عصم الله نبيه من كيدهم، ولم يدرأ المسلمون النفاق بالنفاق، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ووفوا حين غدر الناس وكانوا خير أمة أخرجت للناس، والمتتبع لأحوال النفاق والمنافقين يجد أن النفاق يطل برأسه كلما ظهر أمر الإسلام، وكان بالمسلمين قوة، كحالة المسلمين بالمدينة، بينما يجهر الإنسان بكفره إذا رأى ضعفًا بالمسلمين كما كان الحال في مكة، وقد كانت غزوة بدر وما تم فيها من نصر للمسلمين بمثابة الأمر الذي قد توجه، مما دفع ابن سلول، أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وكان أهل المدينة على وشك تتويجه ملكًا عليهم فلما هاجر

رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة انفض أهلها من حول ابن سلول والتفوا حول رسول الله ﷺ، فما كان منه إلا أن كاد لرسول الله ﷺ وللإسلام وأهله، وتجمع حوله في نفاقه من كان على شاكلته، دس بهم الدسائس وألب بهم المؤامرات، رجاء أن يعود إليه ملكه الغائب، ومن عجيب الأمر أن النفاق تمكن من قلب ابن سلول لدرجة جعلته يموت وهو ينافق، فقد طلب من رسول الله ﷺ قميصه ليكفن فيه، فبعث إليه النبي ﷺ بقميصه الفوقاني فرده ابن سلول وطلب القميص التحتاني وهو الذي يلاصق جسد رسول الله ﷺ فبعثه إليه، وتوهم من حول ابن سلول من المنافقين أنه قد تاب ورجع عن نفاقه فرجع الكثيرون منهم ـ وما دروا أنه كان ينافق حتى وهو يموت فلما مات جاء ابنه وكان من صالحي المؤمنين فقال النبي ﷺ له صل عليه وادفنه، فقال إن لم تصلِ عليه(•). يا رسول الله لم يصلِ عليه مسلم فقام ﷺ ليصلي عليه، وقال يا رسول الله أتصلي عليه وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا وعدّد عليه أشياء مثل قوله: ﴿ **لا تُنفقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا** ﴾ (سورة المنافقون:٧). قوله ﴿ **لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** ﴾ (سورة المنافقون:٨). فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ (سورة التوبة:٨٤). وقد ذكر القرآن أسلحة المنافقين، قال تعالى: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (سورة التوبة:٦٧).

وقد كان من أهم هذه الأسلحة اليمين الكاذبة والخداع وإثارة الخلاف بين المسلمين والتنفير منهم وإيصال الأذى إليهم ونشر الخوف والإرجاف للتأثير في ضعاف النفوس بالدعاية السيئة وموالاة الكفار ومحاولة إدخال الفشل على المسلمين في القتال، وقد عمل المنافقون بهذه الأسلحة الدنيئة وغيرها من الوسائل الخبيثة ليحادُّوا الله ورسوله

(•) المشهور أن عمر هو الذي قال: «أتصلي عليه وقد نهاك الله؟».

فأذلهم الله أشد الذلة وأنذرهم بذلك فقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾** (سورة المجادلة: ٥-٦). كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات وتتعطل بهم أسباب المعايش وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات.

سمع حذيفة ﷺ رجلاً يقول: اللهم اهلك المنافقين، فقال: **«يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك»**. وقد استعمل الفقهاء لفظ الزندقة واعتبروها مرادف النفاق واعتبر الإمام مالك أن النفاق كان في عهد رسول الله ﷺ فقط وأن الذي يقابله بعد ذلك العهد هو الزندقة، وهي كلمة تشمل الكفر والنفاق، وقد أطلق هذا اللفظ أيضًا على جميع المذاهب والفرق التي تتعارض مع أصول دعوة الإسلام كالإسماعيلية والقاديانية والبهائية... وألحق بها من يبطن الكفر ويظهر الإيمان.

وقد سلك عمر ﷺ في معاملة المنافقين إبان خلافته بقوله: **«أيها الناس إن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر خيراً أمنّاه وقربناه، وليس لنا من سريرته، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر سوءاً لم نؤمنه ولم نُصدقه وإن قال إن سريرته حسنة»**، فالحيطة والحذر من الأعداء بصفة عامة والمنافقين بصفة خاصة (الطابور الخامس) واجبة وليس معنى ذلك أن نسيء الظن بعموم الخلق، فالأصل في الناس البراءة لا الاتهام وقد أمرنا أن نقبل من الناس علانيتهم ونكل سرائرهم لله، هو يتولى السرائر ونحسن الظن بالناس ونسيء الظن بأنفسنا، وأن يتخوف كل منا على نفسه من النفاق ومن خصال المنافقين.

ما عرضت فعلي على قولي إلا خشيت أن أكون مُكذبًا

ولما لا يخشى الإنسان على نفسه، فالأمر إما جنة وإما نار فريق في الجنة وفريق في السعير.. وما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها، فهل نحن كذلك؟ وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، فهل أعددنا للأمر عدته، وقد ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الاخرة مقبلة، فهل عملنا يدل على إننا من أبناء الآخرة؟ لقد أصبح الإسلام يناديا من مكان بعيد، من يوم بدر وأُحد. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران:١٤٤). أين حسن التآسي بسلفنا الصالح، وكلنا يردد:

كل خير في اتباع من سلف ■■ وكل شر في ابتداع من خلف

﴿السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة:١٠٠). وواقع الحال أنه إذا ذكرت أحوال السلف بيننا افتضحنا كلنا، كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «**أخشى أن يقول لي يا عويمر هل تعلمت فأقول نعم، فيقول ماذا عملت فيما علمت**»، امتلأت قلوب القوم فقهًا وأعمالهم صلاحًا فكانوا هداة مهتدين، لقى عمر ركبًا فسأل من أين الركب العتيق، فقالوا: من الفج العميق. فقال: وماذا تريدون؟ قالوا: البيت العتيق. فسألهم: أي آية في كتاب الله أعظم؟ فقالوا: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ (سورة البقرة:٢٥٥) الآية، قال: فأي القران أحكم؟ فأجابوه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (سورة النحل:٩٠). قال فأي القرآن أجمع؟ قالوا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة:٧-٨). قال: فأي القرآن أخوف؟ قالوا: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (سورة النساء:١٢٣).

قال: فأي القرآن أرجى؟ فأجابوه: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ (سورة الزمر: ٥٣). قال عمر فإن معكم ابن مسعود، وقد كان، أين معاني العلم والعمل، لقد كان للقوم شأن ولنا شأن.

كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «**والله ما أحد أعلم بكتاب الله مني، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لرحلت إليه**»، وارتحل جابر بن عبد الله شهراً كاملاً لسماع حديث واحد من عبد الله بن أنيس.

فأين نحن من ذلك الآن؟ إن حالنا لا يخفى على الله ولا على الناس، نعاني من انقسامات مريبة، بين العلم والعمل والدين والدولة والدنيا والآخرة والأرض والسماء وبعض العبادات والبعض الآخر وبعض الرجال والبعض الآخر وبعض الساعات والبعض الآخر، خف علينا الكلام فتكلمنا ورأينا العمل كأمثال الجبال فنكصنا على أعقابنا القهقري، أصبحت ظواهرنا في واد وبواطننا في واد آخر وصدق أنس رضي الله عنه وهو يقول لبعض أصحابه: «**إنكم لتعملون أعمالاً أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات**»[1]، تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين لعلمهم بدقة وجله، وتفاصيله وجمله ساءت ظنونهم بنفوسهم، حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين.

قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: «**نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم؟**» **قال: «لا ولا أزكي بعدك أحداً»**.

وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل..»[2]، وذكر عن الحسن البصري.. «ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن»، ولقد ذكر عن أبي

(١) الموبقات: (المهلكات).

(٢) رواه البخاري (باب خوف المؤمن أن يحبط عمله)، «كتاب الإيمان».

الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق**»، قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: «**أن يرى البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع**». تالله لقد ملئت قلوب القوم إيمانًا ويقينًا وخوفهم من النفاق شديد وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز حناجرهم وهم يدعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل، إن كنتم غضابًا فاغضبوا علي أنفسكم، دُعيَّ القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف لو دعوا يوم القيامة وتركتم كلمات قالها سهيل بن عمرو لأبي سفيان رضي الله عنه: «**ولا يجعل الله عبدًا سارع إليه كعبد أبطأ عنه، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**».

أو ضاع العز والنصر والتمكين تناسبت مع صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، وصور المهانة والمذلة والضياع تتناسب مع حجم انحرافنا، ولولا رحمة الله بنا لهلكنا لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي كلنا بحاجة لأن يعرض نفسه على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ، فالناس قسمان: قسم ظفر بنفسه، وقسم ظفرت به نفسه وهؤلاء كثير فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى، قال محمد بن واسع: «عددت مئة خصلة من خصال الخير لم أجد لنفسي فيها نصيبًا»، وقال: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إلي».

ونحن أحرى أن نحاسب أنفسنا وأحوج منه بنطق هذه الكلمات فهي أدق علينا، أين نحن من معاني التوكل والإنابة والحب والخوف والرجاء؟ تبدلت المعاني وتغيرت في حياتنا وحياة الناس فالحب عندنا هوحب الدرهم والدنيا ولذلك شاعت الأنانية والآثرة، وأصبح الأمن والأمان يكمن في تحصيل شهادة جامعية والإسراع إلى شركات التأمين لتأمين المستقبل!! لقد جمع الصحابة بين الإيمان والخوف ونحن جمعنا بين النقيضين، ودائمًا يتأخر فعلنا عن قولنا، لا أقول أين المستحبات كالمحافظة على أذكار الشروق والغروب وتلاوة القرآن، والمكث في المسجد بعد صلاة الفجر حتى الشروق لذكر الله ثم بعد ذلك صلاة الضحى.. ولكن أقول أين اليقين والإخلاص والمحافظة على الفرائض؟ أين رصيد الصدق في ذلك كله؟ ولن تعدم منا بعد ذلك من يقول نحن أمة

محمد ﷺ، ونحن الموحدون كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ (سورة المائدة: ١٨).

وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة البقرة: ١١١).

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا، قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس.

عباد الله غدًا ينكشف الغطاء ويتبين لمن كانت بضاعته النفاق أن ما حصله كان سرابًا، فادعوا ربكم تضرعًا وخفية وألحوا عليه سبحانه بالطلب عساه يرزقنا الصدق في القول والعمل حتى ننتقل من هذه الدار بسلام إلى دار السلام.

كأنهم كانوا يعاينون المغيبات ويكذبون المشاهدات

كان الصحابة رضي الله عنهم يؤمنون بالغيب ويتركون اللذائذ الفانية والمشاهدات الإنسانية والمحسوسات الوقتية والتجارب المادية المخالفة لخبر النبي ﷺ، فكأنهم كانوا يعاينون المغيبات ويكذبون المشاهدات، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: **إن أخي استطلق بطنه**(•)، **فقال: «اسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقًا، قال: «اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، مازاده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً فبرئ**(١).

(•) استطلق بطنه: أصابه إسهال.

(١) الشيخان البخاري (١٠/ ٥٦٨٤)، ومسلم (٥٦٦٣).

وأخرج أحمد[(١)] عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالت: كان عبدالله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة[(٢)]، فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رقى لي فيه، فأخذه فقطعه ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقي والتمائم[(٣)] والتولة[(٤)] شرك»، قالت: قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها فكان إذا رقاها سكنت؟ فقال: إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً».

ومن ذلك قول امرأة عبد الله بن رواحة له: آمنت بالله وكذبت البصر وكانت قد رأته على جاريته فقال: مارأيتني وقد نهى رسول الله ﷺ أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب، قالت: فاقرأ، فقال:

أتانا رسول الله يتلو كتابه كما ■●■ لاح مشهور من الفجر ساطع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا ■●■ به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ■●■ إذا استثقلت بالمشركين المضاجع[(٥)]

أخرجه الدارقطني .. وقولها شبيه بقول المسيح عليه السلام، لما رأى رجلاً سرق فقال له: «سرقت»، قال الرجل: والله ما سرقت، فقال له المسيح: «آمنت بالله وكذبت عيني»[(٦)].

(١) رواه أحمد (٣٤٣٣).
(٢) الحمرة: مرض وبائي.
(٣) التمائم: خرزات يعلقونها لدفع العين.
(٤) التولة: ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره.
(٥) أخرجه الدارقطني.
(٦) رواه مسلم (٦٠٢٢).

وأخرج البخاري عن حبيب بن أبي ثابت قال أتيت أبا وائل أسأله فقال: **«كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله فقال علي بن أبي طالب ﷺ: نعم، فقال سهل بن حنيف ﷺ اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية، يعني لصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر ﷺ فقال: وألسنا على حق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟، فقال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً»، فرجع متغيظًا فلم يرجع حتى جاء أبا بكر ﷺ فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح».**

وفي بعض الروايات: «يا أيها الناس، اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل ﷺ ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته».

وفي رواية: «فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ فقرأها عليه».

وفي رواية: فقال عمر: «فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال أبو بكر: أيها الرجل، إنه لرسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلي أفأخبرك أنك تأتيه العام، فقلت: لا، قال فإنك آتيه ومطوف به، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً» [١].

ولما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص ﷺ وكان أميرًا بها، حين دخل بؤونة من أشهر العجم فقالوا يا أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها، قال: وما ذاك؟، قالوا: إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام. إن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا بؤونه والنيل لا يجري، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو ﷺ إلى عمر بن

(١) رواه مسلم (٤٥٥٢).

الخطاب ﷺ بذلك، فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإنك إن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك، قال: فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعًا في ليلة واحدة، وقد قطع الله تلك السُنة عن أهل مصر إلى اليوم.

ولكن بعض الجاهلين المعاصرين وبصدد إحياء العفن القديم من مرقده، عادوا يحتفلون بوفاء النيل والأزياء الفرعونية والإله حورس !!! نسأل الله أن يخلص البلاد والعباد من الكفر وأهله.. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سهم بن منجاب قال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي ﷺ فسرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم فقال: يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم! إنا عبيدك وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلاً، فاقتحم بنا البحر فخضنا ما يبلغ لبودنا الماء فخرجنا إليهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، أن حجر بن عدى عندما اعترضهم دجلة يوم القادسية قال: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو إلا هذه النطفة يعني دجلة وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلاً ثم أقحم فرسه فلما أقحم فرسه أقحم الناس، فلما رآهم الفرس قالوا: ديوان[١]، فهربوا. وخرجت نار بالحرة[٢] فجاء عمر ﷺ إلى تميم الداري ﷺ فقال: قم إلى هذه النار، فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا؟ وما أنا؟ فلم يزل به حتى قام معه، قال معاوية بن حرمل: وتبعتهما فانطلقا إلى النار، قال: فجعل يحوشها بيده هكذا حتى دخلت الشعب ودخل تميم خلفها، وجعل عمر يقول: ليس من رأى كمن لم ير[٣]، ومن ذلك قول النبي ﷺ لما اعترضتهم صخرة يوم الخندق:

(١) **ديوان**: أي: عفاريت بالفارسية.
(٢) **الحرة**: أرض بالمدينة فيها حجارة سود.
(٣) أخرجه البيهقي، والبغوي.

«دعوني فأكون أول من ضربها، فقال: «بسم الله»، فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال: «الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة»، ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة فقال: «الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة»، فقال عندها المنافقون: نحن نخندق[١]، وهو يعدنا قصور فارس والروم[٢]... ومن ذلك قول خالد حين قال له رجل: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فقال: ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر[٣] براء من توجيهه وأنهم أضعفوا في العدد[٤]، ومن ذلك أيضًا إنفاذ أبي بكر لجيش أسامة بن زيد ﷺ بعد موت رسول الله ﷺ حين انتقضت عليه العرب من كل جانب وارتدت العرب قاطبة ونجم النفاق[٥] واشرأبت[٦] اليهودية والنصرانية، والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم، فأشاروا عليه بحبس جيش أسامة فقال أبو بكر وكان أحزمهم أمرًا: أنا أحبس جيشًا بعثه رسول الله ﷺ لقد اجترأت على أمر عظيم، والذي نفسي بيده لأن تميل عليَّ العرب أحب إليَّ من أن أحبس جيشًا بعثه رسول الله ﷺ، امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به ثم أغر حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة، فإن الله سيكفي ما تركت وتقدم في يوم مؤتة عبد الله بن رواحة ﷺ حين اجتمع العدو مائتي ألف فقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وأما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة.

---

(١) أي: نختبئ بالخندق.

(٢) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن أحمد بن حنبل، ونعيم العنبري، وهما ثقتان.

(٣) الأشقر: اسم فرس خالد.

(٤) أي: زاد في العدد.

(٥) النفاق.

(٦) أي: مدت عنقها.

ستكذب هذا الزيف الذي نعيشه

فهل آن لنا أن نصدق في معالجة هذا الواقع المعوج، ونخرج من هذه الأحوال السيئة بلا يأس ولا قنوط من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.. فالمستقبل لدين الله بغلبته وظهوره على الأديان كلها، وإذا كان اليهود وأشباه اليهود قد تمكنوا من رقاب البلاد والعباد وفرضوا واقعًا مرًا، فإن هذا لا يمكن أن يدوم، ولن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود وحتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود، والمسلم يصدق النبي ﷺ ويكذب هذا الواقع الزائف، ويعلم أن السبيل يكمن في العودة لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والاستمساك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، كتب عمر لأبي عبيدة يوما يقول له: إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين فمهما نطلب العز في غيره أذلنا الله.

الوفاء توأم الصدق

أثنى سبحانه على الأوفياء من عباده فقال: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة آل عمران:٧٦). وقال: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (سورة الرعد:١٩-٢٠). وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (سورة الفتح:١٠). وقال: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ (سورة البقرة:١٧٧). وقال: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (سورة الإنسان:٧). وقال: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ (سورة الأنعام:١٥٢). وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ (سورة المائدة:١). وقال: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ (سورة الشعراء:١٨١). وقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (سورة البقرة:٤٠). وأثنى على خليله إبراهيم بذلك فقال: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ (سورة النجم:٣٧). وبين سبحانه أن الجزاء من جنس العمل فقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (سورة

النجم: ٣٩-٤١). وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٢). وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة الزمر: ١٠).

ومن صور الوفاء ما حكاه حذيفة رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر هو وأبوه من مكة إلى المدينة فقبض عليهما المشركون وقالوا لهما: إنكما تريدان محمداً، فقالا: ما نريد إلا المدينة، ثم أخذ المشركون عليهما العهود والمواثيق حتى لا يقاتلا مع النبي ﷺ وأعطى حذيفة ووالده على ذلك عهد الله وميثاقه، ثم هاجرا، وجاءت غزوة بدر فأرادا أن يشاركا فيها، وأخبر النبي ﷺ بما أعطياه للمشركين من عهد وميثاق، فقال النبي ﷺ لهما: «**انصرفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم**»(١). ووفاء العهد من الدين، ولذلك فرسول الله ﷺ خير من وفَّى مع الأحياء والأموات ومن ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «**ماغِرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»(٢).

وكان يخرج إلى البقيع يدعو لأهلها ويترحم عليهم ويقول: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمة وإن الله منورها بصلاتي عليهم**»(٣)، وعندما أتى أبو جندل يستصرخ المسلمين يوم الحديبية وكان النبي ﷺ قد أبرم الصلح مع أبيه سهيل بن عمرو، قال له الرسول ﷺ: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عهداً وأعطيناهم على ذلك، وإنا لا نغدر بهم**»(٤).

وقال مثل ذلك أيضًا لأبي بصير، وكان قد فر هاربًا من مكة إلى المدينة بعد أن أسلم، وأتى في أثره من يطلب رده من المشركين، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «**إن الوفاء توأم الصدق،ولا أعلم جنة أوقى منه، ولا يغدر من علم كيف المرجع، ولقد**

---

(١) رواه مسلم (٤٥٥٨).
(٢) رواه مسلم (٦١٦١)، والبخاري (٣٥٣٤).
(٣) رواه مسلم (١٥٨٨).
(٤) رواه أحمد (١٨١٥٢).

أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً (أي فطنة وذكاءً)، ونسبهم أهل الجهل إلى حسن الحيلة ما لهم قاتلهم الله؟ قد يرى الحول (القوي) القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها وينتهز الفرصة من لا حريجة (لا نصيب) له في الدين».

وقد اعتاد البعض إعطاء الوعود، بل وقد يُقسم وفي نيته عدم الوفاء، وهذا خطر عظيم، وهو داخل ضمن نصوص الوعيد، بعكس من حجزه حاجز عن الوفاء، واضطر رغم أنفه لنقض الوعد فهذا لا إثم عليه، وقد رويَ بطريق ضعيف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا وعد الرجل أخاه ومن نيته أن يفي فلم يف[1]، ولم يجئ للميعاد، فلا إثم عليه»، وليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق، بل من الوفاء المخالفة كما بيَّن الغزالي، فإذا كان الوفاء يترتب عليه وقوع معصية ومخالفة للكتاب والسنة فهو مذموم ولا يصح إنفاذه، لأن الشرع سيف مسلط على رقاب الجميع لا تجوز مخالفته، وإذا كان الوفاء توأم الصدق وكلاهما من خصال المؤمنين، فإن الخُلْفَ والكذب من صفات المنافقين ففي الصحيحين[2] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، وفي رواية لمسلم: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم»[3].

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»[4].

قال الحسن: كان يقال: النفاق اختلاف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج، وقال الشعبي: من كذب فهو منافق، فالنفاق مبني على الكذب، ومن قال: أفعل كذا إن شاء الله تعالى ومن نيته أن لا يفعل كان كذبًا وخلفا، وهذا شرٌّ

---

(١) أي: لعذر.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم (٢٠٦).

(٤) رواه مسلم (٢١٠).

الخلق، وكذلك من خُلْف الوعد أن يعد الإنسان ومن نيته أن يفي ثم يبدو له فيُخْلف من غير عذر له في الخلف، فانظر رحمك الله للارتباط الوثيق بين الوفاء والصدق من جهة وبين الخلف والكذب من جهة أخرى حتى تسلك طريق أهل الإيمان والسعادة وتتجنب طريق أهل النفاق والشقاوة.

هيا بنا نؤمن ساعة أو قل: نصدق ساعة

قال الربيع بن برّة: ابن آدم إنما أنت جثة منتنة طيَّب نسيمك ما رُكِّب فيك من روح الحياة فلو قد نزع منك روحك ألقيت جثة ملقاة وجيفة منتنة وجسداً خاويًا، قد جيف (أنْتَن) بعد طيب رائحة واستوحش منه بعد الأنس بقربه، أي الخليقة منك أعجب؟ إذ كنت تعلم أن هذا مصيرك وأن التراب مقيلك ثم أنت بعد هذا لطول جهلك، تُقرُّ بالدنيا عينا، أسمعته يقول: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سورة سبأ:١٩). أما والله ما حداك على الصبر والشكر إلا لعظم ثوابهما عنده لأوليائه، فمن أعظم منك غفلة أو من أطول في يوم القيامة منك حسرة إذ كنت ترغب عما رغب لك فيه مولاك وأنت تقرأ في الليل والنهار: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (سورة الأنفال: ٤٠).

وقال: عجبت للخلائق كيف ذهلوا عن أمر حق تراه عيونهم تشهد عليه معاقد قلوبهم إيمانًا وتصديقًا بما جاء به المرسلون؟! ثم ها هم في غفلة عنه سكارى يلعبون، ثم يقول: وأيُّم الله ما تلك الغفلة إلا رحمة من الله لهم ونعمة من الله عليهم، ولولا ذلك لألفى المؤمنون طائشة عقولهم، طائرة أفئدتهم، منخلعة قلوبهم لا ينتفعون مع ذكر الموت بعيش أبدًا.

ومر بالناس وهم يسوون نعشًا لميت فقال: من هذا الغريب الذي بين أظهركم؟ قلنا: ليس بغريب بل هو قريب حبيب، فبكى وقال: من أغرب من الميت بين الأحياء؟ وقال: رضيت لنفسك، وأنت صاحب القلب، أن تعيش عيش البهائم، نهارك هائم وليلك نائم والأمر أمامك جد (عظيم)، وقال: نصب المتقون الوعيد من

الله أمامهم فنظرت إليه قلوبهم بتصديق وتحقيق فهم والله في الدنيا منغصون، ووقفوا ثواب الأعمال الصالحة خلف ذلك، فمتى سمت أبصار القلوب إلى ثواب الأعمال تشوقت القلوب وارتاحت إلى حلول ذلك، فهم والله إلى الآخرة متطلعون بين وعيد هائل ووعد حق صادق لا ينفكون من خوف وعيد إلا رجعوا إلى شوق موعود، فهم كذلك وعلى ذلك، في الموت جعلت لهم الراحة، وقال: إن لله عباداً أخمصوا له البطون (أجاعوها) عن مطاعن الحرام، وغضوا له الجفون عن مناظر الآثام، وأهملوا له العيون لما اختلط عليهم الظلام رجاء أن ينير لهم قلوبهم إذا تضمنتهم الأرض بين أطباقها، فهم في الدنيا مكتئبون وإلى الآخرة متطلعون ـ نفذت أبصار قلوبهم بالغيب إلى الملكوت فرأت فيه ما رجت من عظيم ثواب الله فازدادوا لله بذلك جداً واجتهاداً، عند معاينة أبصار قلوبهم ما انطوت عليه آمالهم، فهم الذين لا راحة لهم في الدنيا وهم الذين تقر أعينهم غداً بطلعة ملك الموت عليهم.

وقال: قطعتنا غفلة الآمال عن مبادرة الآجال فنحن في الدنيا حيارى لا ننتبه من رقدة إلا أعقبتنا في أثرها غفلة فيا إخوتاه نشدتكم بالله هل تعلمون مؤمناً بالله أغر (أي أكثر جهلاً) ولنقمته أقل حذراً من قوم هجمت بهم العبر والأمثال، ثم رجعوا عن ذلك إلى غير قلعة ولا نقلة؟ فبالله يا إخواتاه هل رأيتم عاقلاً رضى من حاله لنفسه بمثل هذه حالاً؟ والله يا عباد الله لتبلغن من طاعة الله ورضاه أو لتنكرن به ما تعرفون من حسن بلائه وتواتر نعمائه. إن تحسن أيها المرد يحسن إليك وإن تسيء فعلى نفسك بالعتب فارجع فقد بيَّن وحذّر وأعذَر، فما للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً. وكان مطرف بن عبد الله يقول: يا إخوتاه اجتهدوا في العمل فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات في الجنة، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر لم نقل: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (سورة فاطر:٣٧). نقول قد عملنا فلم ينفعنا ذلك، وقال وجدت الغفلة التي ألقاها الله عزَّ وجلَّ في قلوب الصديقين من خلقه رحمة رحمهم بها، ولو ألقى في قلوبهم الخوف على قدر معرفتهم به ما هنأهم العيشُ.

وقال: إن أقبح ما طلب به الدنيا عمل الآخرة، وكان بينه وبين رجل من قومه شيء فكذب على مطرف، فقال له مطرف: إن كنت كاذبًا فعجل الله حتفك، فمات الرجل مكانه، فاستعدى أهله زيادًا على مطرف، فقال لهم زياد: هل ضربه؟ هل مسه بيده؟ فقالوا: لا، فقال: دعوة رجل صالح وافقت قدرًا، فلم يجعل لهم شيئًا وقال مطرف: كأن القلوب ليست منا وكأن الحديث يعني به غيرنا. وما أكثر ما ورد وقيل مما يدعو للصدق والتباعد عن الكذب، فقل لنفسك ولمن حولك هيا بنا نؤمن ساعة فإن القلوب أسرع تقلبًا من القِدْرِ إذا استجمعت غليانًا، فعسانا يختم لنا في ساعة الإيمان والصدق هذه فنكتب مع الصادقين، وعساها تقودنا لغيرها وتكون على شاكلتها، فالطاعة تدل على أختها والمعصية كذلك كما يقول سداد بن أوس رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (سورة الليل: ٥-١٠). والإيمان هو لغةً التصديق، وشرعًا: إقرار بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان وكل ذلك يتطلب الصدق المنافي للكذب حتى ينتفع الإنسان بإيمانه في الدنيا والآخرة.

كلمات من نور تعينك على الصدق

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الحذر وابن عساكر عن موسى بن عقبة، أن **أبا بكر الصديق** رضي الله عنه كان يخطب فيقول: الحمد لله رب العالمين، أحمده ونستعينه ونسأله الكرامة فيما بعد الموت، فإنه قد دنا أجلي وأجلكم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد ضل ضلالاً مبينا أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله الذي شرع لكم هداكم به، فإن جوامع هدى الإسلام بعد كلمة الإخلاص السمع والطاعة لمن ولاَّه الله أمركم، فإنه من يطع ولي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدَّى الذي عليه

من الحق، وإياكم واتباع الهوى، قد أفلح من حُفظ من الهوى والطمع والغضب، وإياكم والفخر، وما فَخْرُ مَن خُلق من تراب ثم إلى تراب يعود ثم يأكله الدود ثم هو اليوم حي وغدًا ميت، فاعملوا يومًا بيوم وساعة بساعة، وتوقوا دعاء المظلوم، وعدوا أنفسكم في الموتى، واصبروا فإن العمل كله بالصبر، واحذروا والحذر ينفع، واعملوا والعمل يقبل، واحذروا ما حذركم الله من عذابه، وسارعوا فيما وعدكم الله من رحمته، وافهموا تفهموا، واتقوا توقوا، فإن الله تعالى قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم وما نجا به من نجَّا قبلكم، قد بين لكم في كتابه حلاله وحرامه وما يحب من الأعمال وما يكره، فإني لا آلوكم ونفسي، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله واعلموا أنكم ما أخلصتم لله من أعمالكم فربكم أطعتم وحظكم حفظتم واغتبطتم، وما تطوعتم به فاجعلوه نوافل بين أيديكم تستوفوا سلفكم وتعطوا جزاءكم حين فقركم وحاجتكم إليها، ثم تفكروا عباد الله في إخوانكم وصحابتكم الذين مضوا، قد وردوا على ما قدموا فأقاموا عليه، وحلوا في الشقاء والسعادة فيما بعد الموت، إن الله ليس له شريك وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه سوءًا إلا بطاعته واتباع أمره، فإنه لا خير في خير بعده النار، ولا شر في شر بعده الجنة، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وصلوا على نبيكم ﷺ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في خطبته: تعلمون أن الطمع فقر وأن اليأس غنى وأن الرجل إذا يأس من شيء استغنى عنه، وقال: من لا يرحم لا يُرحم ومن لا يغفر لا يُغفر له، ومن لا يتوب لا يُتاب عليه من لا يتق لا يوقه. وقال: أفلح منكم من حفظ من الهوى والغضب والطمع ووفق إلى الصدق في الحديث فإنه يجره إلى الخير ومن يكذب يفجر ومن يفجر يهلك، إياكم والفجور، ما فجور ممن خلق من التراب وإلى التراب يعود، اليوم حي وغدا ميت، اعملوا عمل يوم بيوم واجتنبوا دعوة المظلوم، وقال اللهم اعصمنا بحبلك وثبتنا على أمرك وارزقنا من فضلك.

ولما بايع أهل الشورى عثمان رضي الله عنه، وهو أشد كآبة فأتى منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال: إنكم في دار قلعة (أي تحول وارتحال) وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أُتيتم صُبحتم أو مُسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (سورة لقمان:٣٣). اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا... وإخوانها الذين آثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (سورة الكهف:٤٥-٤٦). فأقبل الناس يبايعونه.

وقال في بعض خطبه: ابن آدم، اعلم أن ملك الموت الذي وكِّل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرك واستعد له ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك، واعلم بن آدم إن غفلت عن نفسك ولم تستعد لم يستعد لها غيرك ولابد من لقاء الله فخذ لنفسك ولا تكلها إلى غيرك والسلام. وخطب الناس يومًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله فإن تقوى الله غنم، وإن أكيس الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واكتسب من نور الله لظلمة القبر، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرًا، وقد يكفي الحكيم جوامع الكلم، والأصم ينادى من مكان بعيد، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئًا، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده. وقال: اتقوا الله في هذه السرائر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده، ما عمل أحد عملاً قط سرًا إلا ألبسه رداءه علانية، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر»، ثم تلا هذه الآية «ورياشا» ولم يقل وريشا: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (سورة الأعراف:٢٦). قال: السمت

الحسن أخرجه[1]. وقال رضي الله عنه في آخر خطبة خطبها: إن الله عزَّ وجلَّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله، اتقوا الله عزَّ وجلَّ؛ فإن تقواه جُنَّة (أي وقاية) من بأسه ووسيلة من عنده، واحذروا من الله الغير والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزابًا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (سورة آل عمران: ١٠٣).

وخطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: عباد الله، لا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها دار بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال وهي ما بين أهلها دول وسجال، لن يسلم من شرها نزالها، بينما أهلها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتقصمهم بجمامها (تكسرهم بموتها)، عباد الله، إنكم وما أنتم من هذه الدنيا عن سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارًا وأشد منكم بطشًا وأعمر ديارًا وأبعد آثارًا، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم خالية وآثارهم عافية (أي ممحوة) واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق (الوسائد) الممهدة الصخور والأحجار المسندة في القبور الملاطية الملحدة التي قد بنى على الخراب فناؤها وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران وقد طعنهم البلاء وأكلتهم الجنادل (الصخر العظيم) والثرى، فأصبحوا بعد الحياة أمواتًا وبعد غضارة طيب ولذة العيش رفاتًا (كل ما دق وكسر) فُجعَ بهم

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن.

الأحباب وسكنوا التراب وظعنوا (ارتحلوا) فليس لهم إياب، هيهات هيهات، كلا إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون، فكأنْ قد صرتم إلى ما صاروا إليه من الوحدة والبلى في دار الموتى وارتهنتم في ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو قد تناهت الأمور وبُعثرت القبور وحُصل ما في الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدي ملك جليل؟ فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار فظهرت منكم العيوب والأسرار، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (سورة الكهف:٤٩). جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد.

وقال بعد فراغه من قتال الخوارج: يا أيها الناس لا تكونوا ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا قول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أُعطَي منها لم يشبع وإن مُنع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أُوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي، ويأمر ولا يأتى، ويُنهى ولا ينتهي، يُحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم ويبغض الظالمين وهو منهم، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن، إنْ استغنى فُتِنَ وإن مَرض حَزن وإن افتقر قنط ووهن، فهو بين الذنب والنعمة يرتع، يُعافى فلا يشكر ويُبتلى فلا يصبر، كأنَّ المُحذَر من الموت سواه، وكأن من وعد وزُجر غيره، يا أغراض المنايا، يا رهائن الموت، ويا فاكهة الزمان ويا نور الحدثان ويا أخرس عند الحجج، ويا من غمرته الفتن وحيل بينه وبين معرفة العِبر، بحق أقول: ما نَجا من نجا إلا بمعرفة نفسه وما هلك من هلك إلا من تحت يده، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ (سورة التحريم:٦). جعلنا الله وإياكم من سمع الوعظ فقبل ودعى إلى العمل فعمل.

الصدق لازم لتحقيق المنهج الإسلامي وتطبيقه

ونحن نهدف إلى الرجوع بالنفس والأمة لتطبيق شرع الله في كل ناحية من نواحي الحياة وزاوية من زواياها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية أو أخلاقية، وسواء تعلق الأمر بالتعليم أو بإعادة كتابة التاريخ مرة ثانية، نفعل ذلك تلمسًا لرضى الله جل وعلا، ونعلم أن تحقيق المنهج الإسلامي وتطبيقه يتطلب صدق التصور كما لابد من رجال صادقين يقومون على تطبيقه، وهذه هي الوسائل التي يتحقق بها المنهج في الواقع العملي فالتصور الصحيح الصادق هو المستمد من الشريعة في مصادرها المعتمدة، ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون هذا التصور ويعملون على تحقيقه في واقع حياتهم ودراساتهم وتوجيههم وتدريسهم، في بيوتهم ومساجدهم وسوقهم، في تعاملهم مع ربهم ومع أنفسهم ومع الدنيا من حولهم وفي أخذهم وعطائهم وفي تحملهم للعلم وآدائهم له، فإنه بغير هذا الصنف من الرجال المخلصين لا يتحقق تطبيق المنهج المطلوب في الواقع، لأنه لا يمكن أن يقوم على تطبيق المنهج الإسلامي من لا يؤمن بالإسلام أو من لا يعرف التصور الصحيح في الإيمان ولم يدرس الشريعة الإسلامية ويعرف مصادرها وأحكام الحلال الحرام فيها فالرجال العلماء بالشريعة الصادقون في علمهم وعملهم هم الذين يحقق الله على أيديهم مثل هذه المهام الضخام الخطيرة، وقد امتدح الله الرجال المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٣). وبقوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ (سورة النور: ٣٦-٣٧).

فالرجال الأمناء المخلصون هم الوسيلة التي تحقق المنهج في الواقع العملي، وبعد توفر التصور الإيماني الصحيح والعلماء الذين يحملون هذا التصور ويؤمنون به يأتي

دور المنهج العلمي السليم الذي بتطبيقه واتباعه يكتمل تحقق المنهج الإسلامي في الإعلام والتعليم وكتابة التاريخ والاقتصاد والسياسة. . . فإنه بفقد المنهجية العلمية السليمة يفقد العمل كثيراً من مزاياه، بل دعامة من دعائمه، وتصبح المطالبة بتطبيق الشريعة أو الرجوع لمعاني الإسلام عبارة عن عواطف وحماسات طيبة ولكنها غير كافية وهي الركائز يكمل بعضها بعضًا وإن كان بعضها أكبر وأهم من بعض.

فالتصور الصحيح هو القاعدة الأساسية التي لا يتصور وجود عمل سليم مع فقدانها لأنها هي الحاكمة والمهيمنة على كل ما عداها، فهي منطلق أساسي ومركز محوري لكافة الوسائل والغايات، وهي في نفس الوقت وسيلة من الوسائل، التي يتحقق بوجودها المنهج الإسلامي.

وكما قالوا فالسلوك مرآة الفكر، والرجال الصادقون المخلصون هم الذين يحققون بعملهم التصور الإيماني في الواقع العملي والسلوكي خاصة إذا امتلكوا المنهج العلمي السليم وأجادوا تطبيقه في نواحي حياتهم المختلفة ومن المعلوم أن المنهج بدون هذه الوسائل يبقى تصورات في الخيال والذهن ولابد لتحقيقه في الواقع العملي من الرجال العلماء المؤمنين بهذا المنهج. والذين يدركون حجم التبعة ورهبة المسئولية بين يدي الله، وأنهم أمناء على هذا الدين. وأنه لا سبيل لسعادة البشرية إلا بالاستقامة عليه والأخذ به، ومهما طال الطريق أو كثرت الصعاب والمشاق والعقبات فإن هذا لا يدعو لليأس ولا للقنوط من رحمة الله ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة يوسف:٨٧). إن صبغ الدنيا بدين الله مشوار طويل لابد فيه من الصدق في كل مراحله صدق مع الله ومع الناس ومع النفس.

العبرة بمن صدق لا بمن سبق

السبق يكون بثلاثة أشياء: بالصفات والزمان والمكان، وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، وقد استدل الإمام أبو بكر بن العربي على ذلك بقول النبي ﷺ: «**نحن الاخرون الأولون يوم القيامة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غداً والنصارى بعد غد**»[1]، يقول: فمن سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه والاستسلام لأمره والرضا بتكليفه والاحتمال لوظائفه لا نعترض عليها ولا نختار ولا نبدل بالرأي شريعته كما فعل أهل الكتاب، وذلك بتوفيق الله لما قضاه وبتيسيره لما يرضاه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

قال ابن خويز منداد في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (سورة التوبة: ١٠٠). تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلي كل منقبة من مناقب الشريعة في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك في العطاء في المال والرتبة في الإكرام، وفيها خلاف بين أبي بكر وعمر والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف. كان أبو بكر لا يفضل بين الناس في العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة وكان عمر يقول: أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له، فقال أبو بكر: إنما عملوا لله وأجرهم عليه، وكان عمر يفضل في خلافته ثم قال عند وفاته لئن عشت إلى غير لألحقن أسفل الناس بأعلاهم، فمات من ليلته.

وقد نص القرآن على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، أو هم أهل بدر، وقد اتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم وأفضلهم

---

(١) رواه مسلم (١٤١٣).

الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون ثم أصحاب أُحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية وأولهم إسلامًا أبو بكر من الرجال، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان علي، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال، وكل صحابي أفضل من كل من جاء بعده، وثبت أن النبي ﷺ قال: «**دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه**»[(١)].

وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة وكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يفضل سعيد بن المسيب علمًا وأويس القرنى على سبيل العموم والجملة، وسيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن، والمنهج المنضبط لفهم الإسلام والعمل به هو الرجوع لسلفنا الصالح في فهم الكتاب والسنة، والسلف هم الصحابة ومن تابعهم بإحسان من سائر القرون الخيرية وأئمة الدين العدول، والسلفيون هم من تابعوهم على هذا الفهم إلى يومنا هذا من أهل السنة والجماعة، قرأ ابن عباس قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٦). فقال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والافتراق. والتعصب والاجتماع على حق محمود، أما المذموم فهو الاجتماع على باطل، وهذا هو الذي يُقال لأهله دعوها فإنها منتنة.

وإذا كنا ننشد رضوان الله والعز والنصر والتمكين والنجاة والظهور وسعادة الدارين، فعلينا بمتابعة هؤلاء الأفاضل علمًا وعملاً وانقيادًا والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ولما لا وقد وصفهم سبحانه بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠). ووصفهم النبي ﷺ بقوله: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٦٣٦٩)، (٦٣٧٠).

(٢) رواه مسلم (٦٣٥٤).

وأثنى ابن مسعود على الصحابة بقوله كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، وقد اصطفاهم سبحانه لصحبة نبيه ﷺ وهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا عن الابتداع، وألزموا أنفسهم جانب الاتباع، فكانوا صادقين، وذلك لأن منهجهم هو منهج الصدق، وإذا كان الحق مقبولاً من كل من جاء به والباطل مردودًا على صاحبه كائنا من كان، فعلينا بمتابعة خير القرون في فهمهم لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ، وإذا أردنا أن نكون الصادقين فعلينا أن نردد بلسان الحال والمقال:

كل خير في اتباع من سلف ■■■ وكل شر في ابتداع من خلف

وما لم يكن يومئذ دينا، فليس باليوم دينا ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، هؤلاء الأفاضل، هم الذين غَيَّرَ بهم ربنا وجه الأرض وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. نحتاج لوقفة صدق نطالع معها كيف كان توحيدهم واتباعهم وتزكيتهم لنفوسهم، كيف نأخذ بأسباب القوة وبمعاني التحضر والتقدم دون تفريط في الأخلاق الإيمانية، كيف كانت شمولية نظرتهم، فلم يبعضوا ولم يجزئوا دين ربهم، كيف نقيم خلافة على منهاج النبوة، وعلى أساس إقامة منهج العبودية، وكيف توجد المسلم الذي يعمل بإسلامه ولإسلامه، كيف نقيم الحجة لله على الخلائق ونعذر أنفسنا بين يدي الله.. أمور كبيرة وعظيمة وبدون الصدق لا يمكن تحقيقها.

حتى لا تتكرر قصة الإفك

من المجمع عليه أن سورة النور نزلت بعد غزوة بني المصطلق وأنها نزلت في شأن السيدة عائشة رضي الله عنها ـ أم المؤمنين ـ أثناء رجوعهم، وقد ذكر ابن إسحاق أنها كانت سنة ست في شهر شعبان، وجزم ابن حزم وابن القيم بصحة رواية ابن اسحاق ورجحانها على رواية ابن سعد، وقد ذكر القرآن ما كان من أهل الإفك حين خاضوا في عرض الصديقة بنت الصديق والبريئة المبرأة من فوق سبع سماوات، وقد روت

السيدة عائشة رضي الله عنها القصة وهي مذكورة في كتب السنة، والإفك هو الكذب، وكذلك الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبي رأس المنافقين، فهو الذي أشاع هذا الإفك المبين وخاض في عرض ـ أم المؤمنين ـ عائشة، وذلك أنه عندما رأى صفوان بن المعطل آخذًا بزمام ناقة عائشة قال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل، وقد تناقل هذا الإفك بعض الصالحين دون تمحيص، والمشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن النبي ﷺ أقام حد القذف على حسان ومسطح وحمنة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ (سورة النور:٤). أي على صدق قولهم فاجلدوهم ثمانين جلدة، وقد وبخ سبحانه أهل الإفك بقوله: ﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (سورة النور:١٣). أي هم في حكم الله كاذبون، وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه فإنما يبني على ذلك حكم الآخر، وقد أجمع العلماء على أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عزَّ وجلَّ.

وروى البخارى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال أن سريرته حسنة، ولقد عاتب سبحانه المؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا، فقال سبحانه: ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ (سورة النور:١٢). فكان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعد، وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذب، أكنت أنت يا أم

أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم. فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ (سورة النور:١٤). أي بسبب ما قلتم في عائشة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. في الدنيا والآخرة وهذا عتاب من الله تعالى بليغ ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تائبًا، وقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ[1] هَيِّنًا[2] وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (سورة النور:١٥). ثم يأتي هذا الزجر البليغ: ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة النور:١٦-١٨). وهذا عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان، وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقول الإنسان ما فيه، وبراءة عائشة رضي الله عنها من الإفك براءة قطعية بنص القران العزيز فلو تشكك فيها إنسان والعياذ بالله ـ صار كافراً مرتداً بإجماع المسلمين.

قال ابن عباس وغيره: لم تَزنِ امرأة نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا إكرام من الله تعالى لهم والخيانة المذكورة عن امرأة نوح ولوط هي خيانة إيمانية لكونهما لم تسلما وظلت كل واحدة منهما على كفرها فلم تتابع النبي.

وعلى الرغم من أن الإفك الذي خرج به رأس المنافقين وأراد أن يطعن به الدعوة في الصميم وشكل به أذىً شديداً لأم المؤمنين عائشة ولزوجها رسول الله ﷺ ولأبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولصفوان وعموم الصحابة، إلا أن الله تعالى قال عنه: ﴿لا

---

(١) أي: الخوض في الإفك والإذاعة له.

(٢) أي: شيئًا يسيراً لا يلحقكم فيه إثم.

﴿تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (سورة النور: ١١). فالشر ما زاد ضره على نفعه، والخير حقيقته ما زاد نفعه على ضره، وإن خيراً لا شر فيه هو الجنة، وشراً لا خير فيه هو جهنم، فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير، لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير في الآخرة، فنبه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان في قوله: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. لرجحان النفع والخير على جانب الشر.

وحتى تؤتي الصحوة ثمارها بإذن الله

طريق الدعوة محفوف بمخاطر كثيرة، والأعداء يتربصون بهذه الصحوة المباركة الدوائر، وسيحرصون على تكرار قصة الإفك وما شابهها مرات ومرات، رجاء الطعن في الدعوة والدعاة حتى نصرف الناس عنها، ولأن الطعن إذا ما انسحب إلى الجوانب الأخلاقية لأبناء الصحوة، فكيف تقوم لهم قائمة، وكيف يُصدِّق الناس دعوتهم؟ ولذلك فحاجتنا ماسة للحيطة والحذر وتفويت الفرصة على أشباه ابن سلول، لابد من إحسان الظن بعموم المسلمين والصالحين منهم بصفة خاصة، وحملهم على أحسن محاملهم فالمؤمن يتلمس للناس المعاذير أما المنافق فهو الذي يتلمس للناس الزلات، ويجوز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة عمن له به تعلق أما غيره فهو منهي عنه وهو تجسس وفضول ولو جبذ الإنسان لسانه كما صنع الأولون وقال له: يا لسان قل خيراً تغنم أو أمسك عن شر تسلم من قبل أن تندم، فلا بأس بذلك، وهل يكب الناس على وجوههم أو قال النبي ﷺ: «على مانخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»[1]، ومن ذلك ترويج الكذب وإشاعة قالة السوء، وبدلاًمن أن نكون سببًا في نشر الحق والخير نصبح أداة هدم وتخريب وحربًا على إخواننا ودعوتنا، وعونًا للشياطين على نفوس عباد الله الصالحين، فإذا كنا ننشد الإنتقال بهذه الدعوة من ضعف إلى قوة،

(١) رواه الترمذي (٢٥٤١).

ومن قوة إلى قوة، وحتى تؤتي هذه الصحوة الإسلامية المباركة ثمارها بإذن الله، لابد من مراعاة معاني الصدق في القول والفعل، وأن نعلم أن الدعوة بالسلوك أبلغ من الدعوة بالكلم، فعندما يرتسم الصدق في حركاتنا وسكناتنا ويشع من جوارحنا سيسهل على الناس أن يكونوا جنوداً لهذه الدعوة وقد قال سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصف: ٢-٣). وقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة: ٤٤).

عندما نصدق في دعوتنا لن يجد الأعداء مطعنًا حقيقيًا ينفذون من خلاله لتحطيم هذه الدعوة في مهدها، فإذا كنا ننشد نجاح هذه الدعوة ونصرها فعلينا مراعاة الصدق وسائر المعاني الأخلاقية الإيمانية، بل هذا لازم من لوزام إيماننا وسعادتنا في الدنيا والآخرة، فالدين هو حسن الخلق والنبي ﷺ بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وأقرب الناس منه يوم القيامة وأفضلهم إيمانًا، أحسنهم خلقًا، بل سوء الخلق وإيذاء الخلق سبب ورود النيران حتى لو كان الإنسان يصوم النهار ويقوم الليل، وقد أثنى سبحانه على نبيه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤).

وقد دعانا الإسلام للتحلي بالأخلاق في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ومع الأصدقاء والخصوم، وفصّلها لنا تفصيلاً لئلا نختلف في تحديدها وتتدخل الأهواء في تحديد المراد منها ولم يحوجنا لإتيكيت ولا لذوقيات أو إنسانيات نخترعها، ولو نظرنا لوجدنا أن دائرة الأخلاق الإسلامية واسعة جدًا فهي تشمل جميع أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره سواء كان الغير فردًا أو جماعة أو دولة فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق مما لا نجد له نظيرًا في أية شريعة سماوية سابقة ولا في أية نظم وضعية، وقد شاع بين الناس أن العلاقات بين الدول لا تقوم على أساس مراعاة الأخلاق، حتى إن أحدهم قال: لا مكان للأخلاق في العلاقات الدولية، ولهذا كان الخداع والتضليل والغدر والكذب من البراعة في السياسة، إن الإسلام يرفض هذا النظر السقيم، ويعتبر ما هو قبيح أيضًا في علاقات الدول، ويعتبر ما هو مطلوب

وجميل في علاقات الأفراد قبيحًا في علاقات الأفراد مطلوبًا وجميلاً أيضًا في علاقات الدول، ولذلك قال فقهاء الحنابلة: إذا أطلق الكفار الأسير المسلم واستحلفوه أن يبعث إليهم بفدائه أو يعود إليهم لزمه الوفاء، وقال الفقهاء: لا يجوز للمسلم أن يخون أهل دار الحرب إذا دخل ديارهم بأمان لأن خيانتهم غدر ولا يصلح في دين الإسلام الغدر.

والله جل وعلا لا يحب الخائنين ولو كانت الخيانة مع قوم كافرين وكانوا في نقض العهد بادين يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (سورة الأنفال:٥٨). فعلينا بالتزام الأخلاق في حلنا وترحالنا، وفي وسائلنا وغاياتنا، ولنحذر كل خلق ذميم فهو يباعد عن رضوان ربنا ويؤخر النصر عنا: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (سورة الأنفال:٢٥). فهو باختصار شديد هلكة للفرد والجماعة وليس لأحد منا أن يعتذر عن سوء خلقه بأنه تربى عليه ونشأ به ولا يستطيع تغييره، فهذا كذب، وقد قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس:٧-١٠). فاستعن بالله وأكثر من الدعاء والاستغفار وقول لا حول ولا قوة إلا بالله، وتعلم من دينك ما تعظم به حرمات الله، تجتنب به مساخطه سبحانه وروض نفسك وعليك بتقوية معاني العقيدة فيها وأحسن التأسي بالنبي ﷺ وصحابته الكرام ومن تابعهم بإحسان، حتى ولو تكلفت هذه الأخلاق الطيبة حتى تصير طبعًا لك فلا بأس بذلك ولابد من مجاهدة ولن تعدم الخير بإذن الله؛ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت:٦٩).

واعلم أنك على ثغر من ثغور الإسلام فاحذر أن يُؤتى الإسلام من قبلك لعدم صدقك وسوء أخلاقك، وليس لك أيضًا أن تترك مهمتك ودورك لكونك لم تتربى بعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ولكن أبدأ وتعاطى الدواء حتى وإن وجدته مرًا، وأنت وسط الجمع الطيب ستجد من يعينك على طاعة الله، وكن جادًا وصادقًا فلن يهلك على الله إلا هالك، ومسيرة آلاف الأميال تبدأ بخطوة واحدة.

خاتمة الصدق

كل شيء يدعو إلى الصدق، فأصحاب العقول السوية يأنفون من الكذب، والفطر السليمة تدعو إلي صدق القول والعمل، وقد وردت نصوص الكتاب والسنة تحث عليه وتفصل مسائله في كل ناحية من نواحي الحياة، وهذا هو الذي عليه التحويل وإلا فقد تضطرب العقول وتفسد الفطر، فمن طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل، والصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، وكان البعض يقول: لأن أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله، وقالوا: من لم يؤدِّ الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقت، قيل وما الفرض الدائم؟ قال: الصدق، وقالوا أيضًا : الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه، ثم لما كان الجزاء من جنس العمل، فإن صدق المحيا يجر إلى صدق الممات، بل المؤمن يدعو ربه بالصدق، هنا وهناك، ويسأله سبحانه أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (سورة الإسراء: ٨٠). وقد سأل نبي الله إبراهيم ربه أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٨٤).

وبشر جل وعلا عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (سورة يونس: ٨٤). وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (سورة القمر: ٥٤-٥٥). وفي الدنيا قيل: ثلاث لا تخطئ الصدق: الحلاوة والملاحة والهيبة، لهذا كله فإن المسلم يزن حياته بميزان الصدق ويتحراه في كل شيء، فيصدق في توحيده، ليس فقط كمسائل يتعلمها ويرجع فيها لمثل ما كان عليه رسول الله وصحابته الكرام، بل هو يتربى عليها ويتصف بها ظاهراً

وباطنًا، فيهتم بالعبادات المالية والبدنية، واهتمامه بالعبادات القلبية كالحب والخوف والرجاء والتوكل... لا يقل لمعرفته أن القلب بمثابة ملك مؤمر وصلاح الجوارح بصلاحه وفسادها بفساده، وذلك لقول النبي ﷺ في الصحيح «**إلا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1]، والتوحيد عنده ليس هو الإقرار بوجود الله فحسب، فهذا الإقرار لا يختلف فيه، ولكن الأمر أكبر من ذلك، فهو يشمل صرف العبادة لله دون أحد سواه والحكم والتحاكم بشرعه سبحانه وأنْ نَصِفَ الله بما وصف به نفسه في كتابه وسنة نبيه ﷺ وننفي عن الله ما نفاه عن نفسه وما نفاه عن نبيه ﷺ، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل على أساس ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، فكما أن ذاته سبحانه لا تشابه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته جل وعلا لا تشابه صفات المخلوقين، ثم الصدق في التوحيد يتطلب منا نشره ودعوة الخلائق إليه والسعي لإقامة منهج العبودية لله في الأرض، فما من نبي إلا وقال لقومه اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وصدق الاتباع يستلزم محبة النبي ﷺ وتصديقه والعمل بسنته سواء كانت واجبة أو مستحبة، وعدم الاستهزاء بها أو الاستخفاف بحقها كما يستلزم الحرص على تطبيق شريعته وعدم الابتداع والاختراع في دين الله، والحذر من تقديم الآراء والأقوال على سنته، فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وكان بعض العلماء يقول: إذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله ﷺ فخذوا بقول رسول الله واضربوا بقولي عرض الحائط، وهذا من تعظيمهم لهدي رسول الله ﷺ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (سورة الحج: ٣٢). والصدق في تزكية النفوس يتطلب الإيمان ومتابعة الفرائض بالنوافل، وهذا كله دلنا عليه كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ فلا حاجة لنا في طرق صوفية أو فلسفية، كدخول الخرائب والعيش على

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، سبق تخريجه.

طعام واحد أو ذكر الله بالاسم المفرد أو الرقص في الموالد... فالشرع قد اكتمل، وفيه صلاح العباد في دنياهم وأخراهم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة:٣). فمن أراد الدنيا فعليه بالصدق، يقول النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»[1].

وقالوا: ما أملق[2] من صدق، ومن أراد الآخرة أيضًا فعليه أيضًا بالصدق، فسعادة الدارين مرتهنة باستقامة الحال، والاستقامة هي أعظم كرامة، وفقنا الله وإياكم للعمل بكتابه واتباع سنة نبيه ﷺ ورزقنا وإياكم الصدق في القول والعمل وجعلنا من أهله، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي: ما افتقر.

الفهرس

الفهرس

الموضـــوع	صفحة
مقـدمــة	٥
■ القرآن يأمر بالصدق	١١
■ والسنة تحض عليه	١٢
■ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين	١٤
■ عاهدت الله ألا أحدث إلا صدقًا	١٥
■ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون	٢١
■ دواعي الصدق	٢٢
■ الإخلاص والصدق والصبر	٢٤
■ الصدق في الإخلاص	٢٤
■ الصدق في الصبر	٢٦
■ الصدق في التوبة	٢٨
■ الصدق في معرفة النفس والقيام عليها	٣٠
■ الصدق في معرفة عدوك	٣٣
■ الصدق في الورع وطلب الحلال	٣٦
■ الصدق في الزهـد	٣٩
■ الصدق في التوكل على الله عزَّ وجلَّ	٤٢
■ الصدق في الخوف من الله عزَّ وجلَّ	٤٦
■ الصدق في الحياء من الله تعالى	٤٨
■ الصدق في معرفة نعم الله تعالى والشكر له	٥١

الموضـــوع	صفحة

■ الصدق في المحبة ٥٤
■ الصدق في الرضا عن الله عزّ وجلّ ٥٦
■ الصدق في الشوق إلى لقاء الله والأنس بذكره سبحانه ٥٨
■ صدق الأنبياء وعصمتهم ٦١
■ الصادق المصدوق ﷺ ٦٤
■ دلائل نبوته وصدقه ﷺ ٦٥
■ بعض الأخبار الصادقة التي وقعت كما أخبر ﷺ ٧٣
■ بعض الأحاديث الدالة على إخباره ﷺ بما وقع كما أخبر ٧٨
■ الإخبار بغيوب ماضية ومستقبلة ٨٢
■ بشارات تضاف لرصيد الصدق ٨٦
■ مرتبة الصديقية وأبو بكر الصديق ٩٠
■ المؤمن صادق مصدق ٩٣
■ الصداقة والصديق ٩٥
■ إن تصدق الله يصدقك ٩٩
■ إنعكاس الصدق على ظاهر الإنسان ووجهه ١٠١
■ الصدق المنافي للكذب شرط للانتفاع بالشهادة ١٠٤
■ الإيمان بأسماء الله وصفاته تبعث على الصدق ١٠٦
■ تربية الأولاد على الصدق ١٠٨
■ مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية ١١٢
■ قواعد هامة في التحديث ١١٦
■ معرفة شروط المؤرخ المقبول ١٢٠
■ لا يصلح الكذب إلا في ثلاث ١٢٤

الموضـــوع صفحة

▪ الكذبات الثلاثة ١٢٦
▪ التورية والمعاريض ١٢٨
▪ الصدق المذموم ١٣١
▪ ما يباح من الغيبة ١٣٤
▪ الكذب وبعض أحوال الكذابين ١٣٨
▪ بعض مثالب الكذب ١٤١
▪ داوعي الكذب ١٤٤
▪ أحاديث القصاص ١٤٥
▪ القصص الخيالي المكذوب ١٤٨
▪ كذبة إبريل والكذب الأبيض ١٤٩
▪ أمارات الكذاب ١٥١
▪ أمثال شعبية تحرض على الكذب ١٥٢
▪ كثرة الكذب علامة من علامات الساعة ١٥٥
▪ إخباره ﷺ عن الدجالين والكذابين ١٥٦
▪ النبي ﷺ يحذر أمته الأعور الكذاب ١٥٨
▪ الأكاذيب الكونية في مجموع الفتاوى جـ (٤) ١٦٠
▪ كذب قبر الحسين بمصر وغيره وترويج الحكايات المكذوبة ١٦٣
▪ لا يقال فلان شهيد أو مرحوم أو مغفور له ١٦٦
▪ الكذب الإعلامي وسحر بني إسرائيل الحديث ١٧٠
▪ انتشار الكذب ١٧٣
▪ هكذا تتربى الأجيال على النفاق ١٧٥
▪ علاقة الكذب بالنفاق ١٧٧

الموضـــوع	صفحة

- الكذب والنفاق في السياسة والحكم ١٧٩
- ماكيافيللي وصناعة النفاق والكذب في الحكم ١٨١
- النفاق سابق لمكيافيللي ١٨٣
- ما عرضت فعلى على قولي إلا خشيت أن أكون مكذبا ١٨٦
- كأنهم كانوا يعاينون المغيبات ويكذبون المشاهدات ١٨٩
- سنكذب هذا الزيف الذي يعيشه ١٩٤
- الوفاء توأم الصدق ١٩٤
- هيا بنا نؤمن ساعة أو قل نصدق ساعة ١٩٧
- كلمات من نور تعينك على الصدق ١٩٩
- الصدق لازم لتحقيق النهج الإسلامي وتطبيقه ٢٠٤
- العبرة بمن صدق لا بمن سبق ٢٠٦
- حتى لا تتكرر قصة الإفك ٢٠٨
- وحتى تؤتي الصحوة ثمارها بإذن الله ٢١١
- خاتمة الصدق ٢١٤
- الفهرس ٢١٧

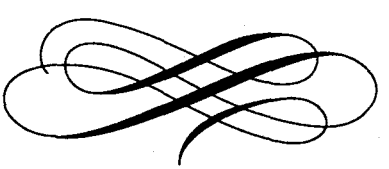

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

هيا بنا نؤمن ساعة

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
تليفون وفاكس: ٥٤٥١٢٦٩٠ ت: ٥٤٤٦٤٩٦٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

كيف تنال السعادة الحقيقية

بقلم

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار القمة

لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي

تليفون وفاكس: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩